

الأصول

من شرح كلامه الأصول

لفهامة الشيخ الصدوق

عبد الصمد بن محمد بن الحسين

عمره له في النسخة والمطبعة

© 2007
 All rights reserved
 No part of this publication
 may be reproduced, stored
 in a retrieval system, or
 transmitted, in any form
 or by any means, electronic,
 mechanical, photocopying,
 recording, or by any
 information storage and
 retrieval system, without
 the prior written permission
 of the publisher.



الذئب والشيء المشابه
 في اللغة والاصطلاح
 د. محمد بن عبد الله
 بن عبد الوهاب

المطبعة والنشر

المطبعة والنشر
 في الرياض
 رقم الهاتف: 3601111 - 3601112
 رقم الفاكس: 3601113
 رقم البريد الإلكتروني: info@almanhaj.com

الطبعة الأولى: 1428هـ / 2007م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القدمة

الحمد لله المتعالي عن الأنداد، المقدس عن القفاص والأضداد،
 المشتهر عن الصاحبة والأولاد، رافع السبع الشداد، عالية بغير عماد،
 وواضع الأرض للمهاد، مئنة بالراسيات الأطواد، المطلع على سر
 القلوب ومكتون القواد، مفدر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد، في
 بحار لطفه تجري مراكب العباد، وفي ميدان حبه تجول خيل الزهاد،
 وعنده معنى الطالبين ومنتهى القصاد، ويعينه ما يتحمل المتحملون من
 أجله في الاجتهاد، يرى ديبب التمل الأسود في السواد، ويعلم ما
 توسوس به النفس في باطن الاعتقاد، جاد على السائلين فزادهم من الزاد،
 وأعطى الكثير من العاملين المخلصين في المراد، أحسنه حمداً يفوق على
 الأعداد، وأشكره على نعمه وكلما شكر زاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له، له الملك الرحيم بالعباد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
 المبعوث إلى جميع الخلق في كل البلاد، صلى الله عليه وعلى جميع الأك
 والأصحاب والتابعين لهم بإحسان إلى يوم التناد، وسلم تسليماً.

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر
 الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة.

فإن من أهم ما يبادر به اللبيب في شرح شهابه، ويثبت نفسه في
 تحصيله واكتسابه، حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضل

واتفتت الأراء والأسته على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة، أهل العلم الذين جلوا به ذروة المجد والثناء، وأحرزوا به قصبات السيق إلى وراثة الأنبياء، لعلمهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة السلف، واقتدى بهديهم في مشايخ الخلف.

واعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنه ليناقس في دعاء الرجل الصالح أو من يقن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة.

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضع عمره معه ولا يفيد ولا يستفيد منه ولا يعينه على ما هو بهدده، فليتلطف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكثها، فإن الأمور إذا تمكثت عسرت إزالتها.

فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً ديناً تقياً ورعاً ذكياً كثير الخير قليل الشر حسن المداراة قليل المماراة، إن نسي ذكره وإن ذكر أمانته وإن احتاج واساء وإن ضجر صبره كما قال بعضهم:

إن أحاك الصدق من كان معك ومن ينظر نفسه ليتفحصك
ومن إذا ريب زمان صدحك شئت شمل نفسه ليجمعك

ثم إنه ينبغي للطالب أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحفلت شفته وظهرت مروته وعرفت عفته، وكان أحسن

تعليماً وأجود تفهيماً، ولا يرغب الطالب في زيادة من العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل.

وبين أدينا مؤلف عظيم صفته داعية من دعاة الصراط المستقيم، العالم الأثري، والإمام الكبير، العلامة المجدد، أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب، وهو كتاب (ثلاثة الأصول) وقام بشرحه فضيلة الشيخ العلامة، المحقق الورع، ناصر العقيدة السلفية، ذي الثقب الفاهم، والنظر المدقق شيخنا عبدالله بن محمد الغنيمان حفظه الله.

فقد من الله عليّ وشرفني بأن أخذت العلم على الشيخ، وأذن لي بتفريغ هذا الشرح ومراجعته عليه وطباعته، ثم خرّجت أحاديثه وآثاره قدر استطاعتي.

وإني إذ أقوم بهذا العمل لأعلم بأن هناك من طلبة العلم من هو أولى مني بهذا العمل، فقد ركبت مركباً لست له بأهل واقتمحت ساحة لست من فرسانها.

وأشكر كل من أعانني على إخراج هذا الكتاب ممن هم حولي وأخص منهم أخي الفاضل: عيسى بن محمد القرعاني، وأسأل الله جلي في علاه أن يجعل أعمالنا كلها صالحة ولو جهه خالصة وألا يجعل لأحد فيها شيئاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهد بن أحمد الغامدي الأزدي

١٤٢٨/٥/١٠ هـ

Handwritten text in a cursive script, likely a historical document or manuscript. The text is arranged in approximately 15 horizontal lines across the page. The script is dense and characteristic of early modern European handwriting.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشرح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله
 نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
 أما بعد:

هذه الرسالة كُتِبَتْ لعامة المسلمين؛ لأنها متعينة التعلم، على كل فرد
 أن يعرفها؛ لكون الناس قصرُوا في هذا الجانب، اختصرها الشيخ رحمه
 الله، واقتصر على الأمور المهمة التي لا يجوز للمسلم أن يجهلها،
 واقتصر على الأدلة الواضحة الجليَّة التي يمكن لكل واحد أن
 يعرفها، وتعلمها متعين، والتعلم ليس مجرد قراءة، هذه يجب أن تحفظ
 ويفهم الكلام المراد، وذلك أن هذا يسأل عنه الإنسان؛ لأنه خُلِقَ لأجل
 العبادة التي خلق الله جل وعلا لها خلقه - كل ما جاء به الرسول ﷺ من
 الواجبات والمحرمات - هذه الخلاصة، وهي كتبت للعامة ولم تكتب
 للعلماء؛ لأن العلماء يجب عليهم غير ما يجب على العامة، يجب عليهم
 أكثر من ذلك، ثم بدأ بالبسملة اقتداءً بكتاب الله جل وعلا؛ لأن أول ما في
 المصحف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١)، افتتح بها، واختلف
 العلماء هل البسملة:

- آية مستقلة.
- أو أنها آية من كل سورة.
- أو أنها آية من سورة الفاتحة فقط وبقيت السور جعلت للفصل بين
 السورة والأخرى وليست منها.

يعني ثلاثة أقوال للعلماء، والراجع أنها آية من سورة الفاتحة، ولهذا يتعين على المصلي أن يقرأها، هذا هو الراجع؛ لأنها آية منها، وسورة الفاتحة سبع آيات كما نصَّ الله جل وعلا عليها، والرسول ﷺ أوجب قراءتها في كل صلاة.

وقد اتفقوا على أنها جزء آية من سورة النمل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرَّحْمٰنِ أَكْرَمِيهِ﴾ (النمل: ٣٠). هذا لا خلاف فيه، وإنما الخلاف هل هي آية من كل سورة؟

ثم كذلك الرسول ﷺ كان يبدأ بها في كتبه، إذا كتب كتاباً كتب قبله بسم الله الرحمن الرحيم، كما رويت كتبه ﷺ بهذا الأسلوب، وفي الحديث الذي رواه عدد من رواة العلم أن الرسول ﷺ قال: «كل أمر ذي بال لا يبدأ به بسم الله»^(١)، وفي رواية: «بالحمد لله»^(٢)، فهو أتر، فيتعين على الكاتب الذي يكتب كتب العلم أو غيرها أن يبدأ بذكر الله أولاً.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرَّحْمٰنِ أَكْرَمِيهِ﴾ والياء للاستعانة، فيستعين بهذا الاسم الكريم، وكل أمر إن لم يكن الرب جل وعلا معيماً عليه، مهم أو غير مهم فلن ينجز ولن يتحصل على طائل، ولهذا قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يعني أبدأ بهذا

(١) أحمد (٨٦٩٧) بالي مسند المنكرين / مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) عزاد السيوطي في «الجامع الصغير» للرهائي (١١٤٧/٤)، والمترجمه الخطيب في «الجامع»

(٣) (٦٩/٢)، وقد أخرج الحديث بطرق كثيرة وألفاظ متعددة.

(٤) نسخة الأزودي، باب ما جاء في خطبة النكاح، و«تلخيص العميرة» باب الاستصحاب خطبة

الأمر مستعياً بسم الله، واسم الله وصفه هو الذي سمي به نفسه جل وعلا وهو اسم مبارك، إذا ذكر على شيء فإنه يتبارك ويزيد وهو الذي إذا استعان به مستعين أعانه الله جل وعلا.

﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴾ اسمان من أسماء الله جل وعلا فالآن على الرحمة، التي هي الصفة وأحدهما أبلغ من الآخر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما هو معلوم في لغة العرب، يعني زيادة الحروف دليل على كثرة المعاني، الرحمن أكثر من الرحيم حروفاً، ولهذا جاء عن ابن عباس وغيره أنهما اسمان رقيقان وأحدهما أرق من الآخر^(١). ومعنى رقيقان: يعني يدلان على الرقة والرحمة، وأحدهما أدل من الآخر الذي هو الرحمن، ولهذا جاء «رحمن الدنيا والآخرة»^(٢). يعني أنه جل وعلا رحمته وسعت كل شيء فهي كثيرة جداً.

اكتفى بذكر الله، بالبسطة وهذا يكفي، وكثير من العلماء يجمع بينها وبين الحمد لله؛ لأنه في رواية بالحمد لله، وهذا البخاري رحمه الله في صحيحه اكتفى بذلك، ثم ذكر الحديث: «إنما الأعمال بالنيات»^(٣).



(١) تفسير الطبري، والبخاري، وفي الدر المنثور.
 (٢) المستدرک، (١٨٩٨) كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، ومصنف ابن أبي شيبة (٢٩٩٩٨) كتاب الدعاء، باب ما ذكر عن قوم مختلفين مما دعوا به.
 (٣) البخاري (١) كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمامة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» من حديث عمر رضي الله عنه، ذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة».

اعلم

الشرح:

قوله: «اعلم»، أمر للسامع، بأن هذا أمر مهم، وعند الأمور المهمة ينه السامع بقوله: اعلم، حتى تجتمع همته ويستعد لذلك، والعلم الذي يقصد به هو إدراك المعلومات وتيقنها على الوجه المطلوب وعلى وجه المطابقة التي أريدت.

رَحِمَكَ اللهُ

الشرح:

وقوله: «رَحِمَكَ اللهُ» هذا دعاء للسامع الذي يُطلب منه معرفة ذلك، والدعاء مطلوب من المسلم لأخيه المسلم، ومن رحمه الله جل وعلا وقاه شر الجهل وشر الذنوب، وإلا لا أحد يخلو من جهل ومن ذنوب إلا من علمهم الله جل وعلا من آياته وأصفيائه وأوليائه، وأصل الشر يأتي من الجهل ثم الذنوب، لأن الجهل هو الذي يبعث على الذنوب، ولهذا يقول الصحابة رضوان الله عليهم في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا أَتَيْنَا عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ **لِقَوْمِكَ يَسْتَأْذِنُونَ كَلِمَةً بَيْنَهُمْ** (النساء: ٥٧). أن كل من عمل السيئة فهو جاهل؛ لأن العاقل لو عرف من عصى لا يمكن أن يقدم على المعصية، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (النساء: ٦٨). الذين يعلمون بالله جل وعلا، ولهذا قال: «رَحِمَكَ اللهُ» لتلا نفع في الجهل وفي آثاره من الذنوب، ومن رحمه الله جل وعلا أدركته السعادة بحيث يعمل بأسبابها في الدنيا ثم يكون على عمل يرضي ربه جل وعلا فيتوقاه

عليه، فيكون مرحوماً.

أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا.

الشرح:

هنا يقول: «يجب علينا»، جاء بالضمير الذي يدل على الجمع، يعني المسلمين، علينا أيها المسلمون عموماً، يعني كل مسلم ومسلمة.

تَعَلَّمُ أَرْبَعَ مَسَائِلَ:

الشرح:

يجب علينا تعلم أربع هذه المسائل، وهذا ينقسم إلى قسمين - أي هذا الوجوب - قسم عيني على كل فرد من أفراد الأمة ذكر وأنثى، إذا بلغ التكليف وجب عليه، الثاني يجب على عموم الأمة وليس على أفرادها بأعيانهم، وهذا الذي يسمى فرض الكفاية، وهذه المسائل الأربع تنقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، المسائل الأربع التي سيذكرها منها ما هو فرض عين على كل مسلم ومنها ما هو فرض كفاية إذا قام به جماعة كافية من الأمة سقط الإثم عن الجميع والائتمت الأمة كلها، لأنه لا يجوز أن يجهل شيء مما جاء به الرسول ﷺ لصوم الأمة، والرسول ﷺ بلغ، جاء بالبلاغ المبين وقد حفظ ذلك.

المسألة الأولى: العِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ
الإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ.

الشرح،

ثم قال في تفصيل الأربع مسائل: «الأولى: العلم»، العلم كما قلنا بنفسم إلى قسمين: علم فرض عين، وعلم فرض كفاية. وفرض العين معناه على الأعيان، كل إنسان بعينه يجب عليه العلم، أن يعلم وفي الحديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١). والمسلم يدخل فيه النساء، ولهذا اللفظ الذي فيه «ومسلمة» ضعيف.

العلم فريضة على كل مسلم، فهذا الفرض الذي يجب علينا تعلمه ويكون على الأعيان مثل معرفة الله جل وعلا بأن يعرف ربه معرفة لا يكون شاكاً فيها، ويجب أن يكون بالدليل كما سيأتي، لأنه إذا لم يكن بالدليل لا يصل إلى اليقين، ومعرفة الدين ومعرفة الرسول ﷺ تكون فرض عين، فيجب أن يعرف التوحيد، عبادة الله والعبادة يجب أن تكون خالصة لله مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة والركوع والسجود والدعاء والتضرع والذبح والخوف والخشية والإنابة وأنواع العبادة، كل العبادة يجب أن يعرف أنها حق لله جل وعلا وليس لأحد من الخلق فيها شيء، هذا فرض، فرض على العبد أن يعرف ذلك.

وكذلك يجب عليه أن يعرف الصلاة، التي فرضها الله عليه ويعرف ما

(١) رواد البخاري (١٢٠٤) كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، و(٦٦٠٦) كتاب الفتن، باب العمل بالخطيئة، ومسلم (١١١) كتاب الإيمان، باب بيان فلفظ قبل الإنسان نفسه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(١١٤٤) باب تحريم الفطور وأنه لا يدخل الجنة إلا العوفون، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورواه الترمذي (٨٧١) كتاب الحج، باب ما جاء في كراهية الطواف عرباً، و(٣٩٢) كتاب التفسير، من سورة التوبة، من حديث علي رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: صحيح دون قوله: «والمسلم العلم... إلخ»، فإنه ضعيف جداً.

يشترط لها، يعرف مثلاً كيف يتوضأ وكيف يتيمم إذا فقد الماء وكيف يصلي إذا كان صحيحاً وكيف يصلي إذا كان مريضاً وكذلك إذا كان عنده مال يجب أن يعرف كيف يزكي المال، ما مقدار الزكاة ومن يعطيها، يجب أن يعرف هذا، أما إذا لم يكن عنده مال فليس واجباً عليه، إنما يجب على من عنده مال كذلك يجب أن يعرف أن الله أوجب عليه صوم رمضان ويعرف معنى الصوم الذي هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، المفطرات التي تقطر الصائم.

وكذلك يجب أن يعرف كيف يبيع ويشترى في الشيء الذي يلزمه، حتى لا يقع في الربا، ولا غيره من المحرمات، فإن لم يعرف ذلك فهو آثم، كذلك يجب عليه أن يعلم أن الزنا حرام وأن الربا حرام وأن الفواحش ما ظهر منها وما بطن قد حرمها الله جل وعلا، يعتقد ذلك، وهذه من الأمور الفرضية العينية التي تجب على الإنسان، هذا الذي يسمى في هذه المسألة فرض عين يتعين وهو كما عرفنا يختلف باختلاف الناس.

كذلك يجب عليه أن يعرف أحكام النكاح إذا كان يريد أن يتزوج، والطلاق والرجعة والشيء الذي يلزم لهذا لأن هذه أمور مكلف بها الإنسان، لا يجوز أن يجهلها.

أما الفرض الكفائي في هذه المسألة فهو واسع جداً فإنه يجب على الأمة بعمومها ألا يفوتها شيء مما جاء به الرسول ﷺ من جميع العلوم التي تتعلق بالدين من فقه وحديث وفرائض ولغة وغير ذلك، ومثل المنسوخات والمحكمات والعمومات والخصوصيات وغيرها، هذه تلزم

العلماء الذين عندهم مقدرة على ذلك ولا تلزم عوام المسلمين، ولهذا صار طلب العلم أفضل من صلاة التطوع ومن صدقة التطوع ومن سائر الأعمال التطوعية؛ لأن فيه تبليغ وحفظ الدين فيه حفظ ما جاء به الرسول ﷺ، فالتعلم والتعليم من أفضل الأعمال إذا عملت النية، وإلا العلم إذا فقد النية الصالحة يكون وسيلة عذاب - نسال الله العافية - ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن أول من تسخر به جهنم - نسال الله العافية - ثلاثة، أحدهم المتعلم^(١)، الذي تعلم ليقال هو عالم ومناظر، هو يستطيع أن يرد، هو يستطيع أن يتكلم، ويطلب أن يتى عليه ويمدح ويشار إليه بالعالم القلاني؛ لأنه في الواقع بعيد هواء.

والمقصود أن العلم على هذا ينقسم إلى قسمين: العلم الواجب على كل فرد بعينه، وهو الذي يلزمه في أمر دينه الذي لا يبد منه، يجب أن يتعلمه ولا يجوز أن يكون يأخذ ذلك عما يشاهده من الناس فإن هذا يسمى التقليد، والتقليد في مثل هذه الأمور لا ينفع فلا بد أن يعرف أنه تجب عليه الصلوات الخمس وما يطلها، ويعرف واجباتها وشروطها وأركانها.. الخ، وسبأتي ذكر ذلك لأنه رحمه الله لما ذكر هذه المسائل أراد أن يذكر الشيء الواجب المتعين الذي لا بد منه وسيلذكر ذلك، هذه المسألة الأولى: العلم. والقسم الثاني العلم الكفائي كما سبق.

(١) سنن الترمذي (ITTAT) كتاب الزهدة باب ما جاء في الرياء والسعفة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن قريب وصححه الألباني.

المسألة الثانية: القَمَلُ بِو.

الشرح:

لأن العلم وسيلة للعمل، والعمل هو ثمرته، فالعلم مثل الشجرة والعمل مثل الثمرة، الثمرة هي المفصولة، الشجرة ليست إلا وسيلة وسبب إلى ذلك، فيجب أن يعمل بعبادة الله جل وعلا، أن يعبد الله وحده، يعلم ثم يعبد ربه جل وعلا، فيجعل التوحيد لله جل وعلا، في الصلاة والدعاء والنذر والصوم والصدقة وغيرها، كل الأعمال يجب أن يجعلها لله جل وعلا، وكذلك سائر ما تعلمه من الشرع يعمل به، وهذا يختلف باختلاف الناس، فمن الناس من يجب عليه ما لا يجب على الآخر في هذه المسألة، مسألة العلم، ولهذا نقول أيضاً: أن هذه تأتي فرض عين وفرض كفاية، فهناك من الناس من لا يستطيع أن يجاهد ولا يستطيع أن يطلب العلم الذي يدخل في فرض الكفاية، فإله لا يكلف نفساً إلا وسعها، يكون تكليفه على حسب وسعه وقوته، الذي يستطيع العمل ليس كالذي لا يستطيع، فيجب على من استطاع أكثر مما يجب على الذي لا يستطيع، ولكن العمل يشمل الشرع كله، وهذا الذي يكون فرض كفاية يكون كثيراً منه فرض كفاية، أما الشيء الذي يتعين على الإنسان بعينه فهو فرض عين.



المسألة الثالثة: الدَّعْوَةُ إِلَى.

الشرح:

الدعوة إلى العلم الذي تعلمه، والدعوة هي سبيل الرسل والله جل

وعلا يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ أَهْلِهَا أَنُكْفِرَ بِمَا كُفِرَ مِنِّي وَنُحَنَّرَ
 لِمَا نَكُفِّرُ وَلَا نُنَاصِرُ﴾ يوسف: 108.

فقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أمر من الله جل وعلا يأمر به رسوله ﷺ أن
 يقول لمن يلقه ذلك ولعن يصل إليهم هذا الكلام ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني
 الدعوة التي جئت بها هي التي أحيا من أجلها وأموت عليها وليس لي
 عمل غير ذلك، فعليها حياتي وعليها مماتي فهي سبيلي الذي أسلكه في
 حياتي، ليس لي مسلك وطريق غيرها، ما جاء صلوات الله وسلامه عليه
 إلى القصور لعمارتها ولا لإجراء الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لغير
 ذلك من أمور الدنيا، وإنما يفعل من ذلك الشيء الذي لا بد منه، وإن كان
 ليس في هذا الأمر بترك للدنيا، ولكن لا يجوز أن تكون الدنيا على
 حساب الدعوة إلى الله، فالدنيا تكون تبعاً لهذا، إذا كان الإنسان كمل
 الدعوة إلى الله تعالى تكون الدنيا عوناً على ذلك، ولا بأس أن يأخذ
 الدنيا ولكن يجب أن لا ينسى حق الله فيها ويجب ألا تشغله عما هو
 فرض عليه، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ يوسف: 108. أدهو هنا بيان
 للسبيل، بينما بعدما قال: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾، ثم قال: ﴿أَدْعُو إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وليس
 دعاء مطلق حتى تكون الدعوة بالإخلاص، يكون الدعاء إلى الله بحق
 وبصدق وليست دعوة لغير ذلك.

قال الشيخ رحمه الله في مسائل التوحيد على هذه الآية: «أما قوله:
 ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ تنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً من الناس وإن دعا في الظاهر
 إلى الله فهو في الحقيقة يدعو إلى نفسه». أخر.

﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ يوسف: ١٠٨. والبصيرة هي العلم الذي هو فرض علينا، يعني يدعو على علم من الله جل وعلا أن هذه الدعوة تجب وأن الدعوة بكذا وإلى كذا.

قوله: ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني، أو أنا أدعوا على بصيرة ومن اتبعني وكله جائز، والآية تدل على هذا وهذا، وكذلك غيرها من الآيات كثير يدل على وجوب الدعوة، ولكن الدعوة إلى الله جل وعلا تنقسم إلى قسمين: دعوة إلى الجهاد، والجهاد مراتب: منه ما هو فرض عيني، ومنه ما هو فرض كفائي، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»^(١)، ومعنى «يحدث نفسه» يعني يعزم ويتوي أنه سيغزو في سبيل الله، فالجهاد مرتبتان بل الجهاد يكون جهاد للنفس وجهاد للشيطان وجهاد للكفار والمنافقين.

أما جهاد النفس فهو ثلاث مراتب: جهاد النفس في عمل الطاعات، وجهادها في الصبر عن المعاصي، وجهادها على المكروه من هذا وهذا، ثم جهاد الشيطان يكون جهاد له فيما يلقيه من الشبهات والشكوك، وهذا يكون بالعلم، وجهاد له فيما يلقيه من الشهوات في النفوس التي تميل إليها والأمراض، أمراض القلوب؛ لأن المرض ينقسم إلى قسمين: مرض شهوة ومرض شبهة، ولهذا لما ذكر الله جل وعلا أمر النساء بالحجاب وأن

(١) مسلم (١٩١٠) كتاب الإمامة، باب ذم من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو، والنسائي

(٣٠٩٧) كتاب الجهاد، باب التشديد في ترك الجهاد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

ذكره الألباني في المشكاة.

وبغضض من أصواتهن قال: ﴿فِيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرْمَضٌ﴾ (الأحزاب: ١٣٢) الذي في قلبه مرض الشهوة، إذا سمع المرأة بصوتها الرخيم الرقيق تنور شهوته؛ لأن عنده مرض الشهوة، فأمرت بأن تواجه الرجل بصوت غير هذا، وهذا هو جهاده من هذين الوجهين.

أما جهاد الكفار فيكون بالنفس وبالمال وباللسان، ويكون الجهاد بالقلب وبكرهاتهم وبغضهم ومعاداتهم والعزم على إظهار ذلك والعمل عليه، ويكون بالمال بأن يجاهد بماله، ويكون بيده بنفسه، ويكون بلسانه، وجهاد الكفار والمنافقين كله بهذا، والله جل وعلا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَعَلِّظُوا عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ وَاللَّيْسَ الْأَعْيُورُ﴾ (التوبة: ١٧٣). جاء هذا في آيتين من القرآن، ولكن جهاد الكفار باليد أخص وجهاد المنافقين باللسان أخص يحتاجون إلى بيان أحوالهم وأوصافهم وما هم فيه، فهذا كله من العمل الذي يجب على الناس عموماً وخصوصاً يعني منه ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، وجهاد الكفار بالنفس ذكر العلماء أنه يصبح فرض عين في ثلاث مواطن:

الموطن الأول: إذا حضر القتال، كل مسلم يحضر القتال بين المسلمين والكفار يجب عليه أن يقاتل وإلا يصبح من الذين تولوا يوم الزحف وهو متواعد بالنار - نسال الله العافية - ﴿وَمَنْ يَتُوبْ لَهُمْ تَوْبَتُهُمْ فَإِنَّهُ إِذًا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْ مِنِّي قَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالنَّاصِرِ﴾ (التوبة: ١٦). هذا استثناء ﴿فَقَدْ كَفَرَ يَتَخَفُونَ كَيْفَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ وَمَا أُولَاهُ جَهَنَّمَ وَاللَّيْسَ الْأَعْيُورُ﴾ (الأنفال: ١٦). وهذا يدل على أنه فرض عين وهو المقصود.

المواطن الثاني: إذا داهم العدو البلد الذي فيه المسلم وجب عليه أن يجاهد ولا يجوز أن يتخلف فهو فرض عين على كل من كان فيها وهو قاصر. **المواطن الثالث:** إذا عينه إمام المسلمين، قال له أنت تجاهد تبعين عليه ووجب أن يجاهد. **المواطن الرابع:** إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقيين.

والجهاد يجب ألا يعطل؛ لأن الله أمر به فيجب أن يقام، ولهذا جاهد في الحديث: **«أما دام العدو يقاتل فالإسلام فيه عز أو عزيزه، وجاهدتها تليل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها»^(١)**، وعند طلوع الشمس من مغربها يتعطل الجهاد في سبيل الله؛ لأنه لا ينفع نفس عمل تزيد به، والجهاد من أفضل الأعمال كما أخبر الله جل وعلا فإنه ثبت في الحديث الصحيح أن الصحابة رضوان الله عليهم تذكروا أي الأعمال أحب إلى الله، فنزل الله جل وعلا سورة الصف: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَعْلَى كَلِمَاتِكُمْ عَلَى كَلِمَاتِهِمْ كَذِبًا كَرِيمًا﴾** **(١٠)** **﴿قَوْمُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ آمَنُوا كَرًا وَأَشْجَارًا ذُرَّارًا كَرًا﴾** **(١١)** **﴿الصف: ١٠-١١﴾**

(١) حسن أبي داود (٢١٢٩) كتاب الجهاد، باب في الهجرة، هل انقطعت؟ من حديث معاوية رضي الله عنه، صححه الألباني.

(٢) حسن الترمذي (٣٣٠٩) كتاب تفسير القرآن، باب هو من سورة الصف، من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال الترمذي: عولف محمد بن كثير في إسناده هذا الحديث من الأوزاعي، وقال الألباني: هو صحيح الإسناد.

والإيمان بالله قبل الجهاد لأبد منه، ولكن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، إذا تبين لنا أن الجهاد منه ما هو فرض كفاية ومنه ما هو فرض عين، ففرض العين على الإنسان أن يجاهد نفسه ويجاهد الشيطان وهذا فرض عين على كل إنسان، أن يجاهد نفسه في فعل الواجبات التي أوجبه الله عليه ويجاهد في كفها ومنعها عن المحرمات التي حرمها الله جل وعلا، والجهاد لأبد منه لأن هذه الحياة كلها جهاد وكفاح، أما أن الإنسان يجلس مسالماً لا يمكن أن ينجح بل يخسر لأنه تستولي عليه نفسه وتستولي عليه الشيطان، فيهلك إن لم يجاهد نفسه والشيطان، وجهاد الشيطان فرض عين يجب أن يجاهده، والشيطان يرانا من حيث لا نراه كما قال الله جل وعلا، وهو يجري من بين آدم مجرى الدم^(١)، يدخل في جسده ويشمه ويلقي خرطومه على قلبه ويشمه ويرى ماذا يريد وماذا يحب فيزين له ذلك والله جل وعلا كرر الأمر بمجاهدته بآيات كثيرة وأمرنا أن نتخذة عدواً، والعدو يجاهد، هذا الذي هو فرض عين،

أما مجاهدة العدو باليد وبالمال، وكذلك جهاد القلب على كل واحد يجب أن يجاهد بقلبه ولا يجوز أن يخلو القلب من مجاهدة أعداء الله، هذه مسألة الدعوة إلى الله، أن يدعو إلى الله فيكون الجهاد من الدعوة.

والدعوة أمرها واسع، تكون بالقلب وتكون بالتعليم وتكون بالعمل بالاعتداء بأن يكون الإنسان قدوة ويدعو بعمله، ويكون كذلك بالمال ويكون بكتابة بيان حكم الله جل وعلا وحكم رسوله ﷺ وبيان تمييز

(١) البخاري (٦٠٣٩) كتاب الاستكفاف، باب هل يدرك المعتكف عن نفسه، ومسلمه (٢١٧٤)

الحق من الباطل فيما يلتبس به وقد يلبس به الأعداء فهو من الجهاد ومن أعظم الجهاد.

المسألة الرابعة: الصبرُ عَلَى الأذى فيه.

الشروح:

فالصبر أيضاً يكون صبر متعين على كل أحد بحسب الشيء الذي يلزمه فيه، صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله وأحكامه القدورية، فيكون الصبر ثلاثة أقسام وهو واجب، وإذا أصابه شيء وجب عليه أن يصبر فلا يجوز أن يتسخط من قضاء الله جل وعلا، ولكن هذا داخل فيه، الصبر على الأذى فيه يعني الدعاء.

والعلم إذا علمه الإنسان ثم عمل به ثم دعا إليه لا يد أن يؤذى، كل من دعا لا يد أن يؤذى فيجب أن يصبر على الأذى، أمر الله بذلك رسوله في آيات كثيرة، أمره بالصبر، أن يصبر صبراً جميلاً، وأمره أن يدفع بالتي هي أحسن وأن يصبر ويحسب صبره بالله ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِالْقَوْلِ ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقول كثير من المفسرين أن الآيات التي جاء فيها الأمر بالصبر منسوخة بأية السيف غير سديد وغير دقيق بل هو خطأ في الواقع، إلا إذا أريد بالنسخ التخصيص لأنه قد يطلق النسخ ويراد به التخصيص، أما إذا أريد به إزالة حكم بإبداله بحكم آخر فهذا لا يجوز، ولهذا ذكروا أن آية السيف نسخت ما يقارب من خمسمائة آية وهذا غير صحيح، آية السيف نسخت الأمر بعدم جهاد الكفار؛ لأن الجهاد بالأول كان ممنوعاً لما كان المسلمون في مبدأ أمرهم ضعفاء وكانوا في مكة قلة بحيث لو

جامعوا يمكن أن يقضى عليهم، فكانوا ممنوعين من المجاهدة مأمورين بالصبر، ثم بعد ذلك أذن لهم في الدفاع ﴿أَنْ لِيُؤَيِّنَ بَقْتُلُوهُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] أذن لهم في القتال دفاعاً عن أنفسهم وعن أموالهم وأولادهم فقط ثم بعد ذلك جاء الأمر بالجهاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ قِلَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] وقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَلْفَةً﴾ [التوبة: ٣٦] يعني عمومياً. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهِدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأْمُرْهُمْ بِجَهَادِهِمْ وَيُقِي الضَّعِيفَ﴾ [التوبة: ١٧٣].

وهناك آيات كثيرة تأمر بالجهاد والقتال، فهذه لا يجوز أن تقول أنها منسوخة بأية السيف، بل هي باقية محكمة ولكن المسلمون إذا وقعوا في مثل هذه الحالة التي تشبه حالة المسلمين في أول أمرهم في مكة فإنهم يؤمرون بالصبر وعدم الدخول في الجهاد؛ لأنهم إذا جامعوا في هذه الحالة نُصِيَ عليهم وشحوا، وإذا تَقَوَّوا شيئاً ما، يعني أن الأمور والأطوار التي كان الرسول ﷺ سار فيها أنها باقية، إذا وقع المسلمون في الحالات التي تشبهها يستعملونها، وهذا هو الصواب والحق الذي يجب أن يعمل به، قوله: «الصبر على الأذى فيه» يعني في العلم الذي علمه ودعا إليه، أن يصبر على الأذى وذلك لأن دعوته لله، والذي تكون دعوته لله لا بد أن يصبر أما إذا كانت لغير الله قلن يصبر، والله أعلم.

وَالذِّيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْقَسْرُ ١﴾ إِذِ الْإِسْرَافِ
 فِي شَيْءٍ ١ إِلَّا الَّذِينَ مَسَّوْا وَصَلُّوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا
 بِأَيْدِيهِمْ ٢﴾ [سورة العصر كاملة].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: لَوْ نَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا عَلَيْهِ
 السُّورَةُ لَكُنْتُمْهُمْ.

الشرح:

ذكر قول الشافعي بالمعنى، والذي روي عن الشافعي: لو تأمل الناس
 في هذه السورة لوسعتهم، والمعنى قريب.

وقوله جل وعلا: ﴿وَالْقَسْرُ ١﴾ [العصر: ١]. هنا أقسم، والله جل وعلا
 يحلف بما شاء، ويقسم بما يشاء من خلقه، أما نحن فلا يجوز أن نقسم
 إلا بما أذن لنا الله جل وعلا فيه، وهو ربنا جل وعلا، أن نقسم به أو بصفة
 من صفاته، وما عدا ذلك لا يجوز، وفي الحديث: «من حلف فليحلف
 بالله أو بصمت»^(١)، وفيه: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٢)،
 وفيه: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم»^(٣).

(١) «البيهقي» (١٧٧٩) كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف؟ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْفٍ
 [قضاء: ٦٢]، و«مسلم» (١٦٤٦) كتاب الإيمان، باب النهي عن التحلف بغير الله تعالى، من

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ذكره الألباني في «غاية المعجم»..

(٢) «سنن الترمذي» (١٥٣٤) كتاب الإيمان والنبوة، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، من
 حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: صحيح.

(٣) «البيهقي» (١٦٤٦) كتاب الإيمان والنبوة، باب لا تحلفوا بأبائكم، و«سنن الترمذي»
 (١٥٣٤) كتاب الإيمان والنبوة، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، من حديث ابن عمر
 رضي الله عنهما، قال الترمذي: حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح.

فالمخلف بغير الله لا يجوز لنا، والله جل وعلا يقسم بالآيات التي تكون دليلاً على وحدانيته وعلى ملكه وقهره وتفرده، والمعصر هو الزمن، الليل والنهار، لما فيه من الآيات وهو محل العمل وهو محل الريح أو الخسارة، ربح الإنسان أو خسارته، لأنه مزرعته ومزرعته عمره الذي هو عبارة عن ساعات، كل ساعة تمر على الإنسان يمضي وقت من عمره حتى ينتهي أجله، فتطوى صحيفته ويختم عليها فلا يستطيع أن يزيد فيها حسنة ولا ينقص من السيئات شيئاً، ومن أجل ذلك لدلالته على أنه من آيات الله جل وعلا وأن الله جل وعلا خلقه وجعله دالاً عليه ولكونه أيضاً مزرعته، مكسباً للسعادة ومكسباً للشقاوة، أقسم به جل وعلا فقال:

﴿وَالْمَعْرُ﴾ (المعمر: ١٦). ثم المقسم عليه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ (المعمر: ١٧).

و﴿الْإِنْسَانَ﴾ جنس الإنسان ويشمل كل من صدق عليه أنه إنسان من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ (المعمر: ١٧). يعني كلهم خاسرون، كل إنسان خاسر، ثم استثنى من الخاسرين ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (المعمر: ١٧).

﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا﴾ يلزم أن يكون الإيمان عن علم، أي سبق الإيمان

علم، ثم الإيمان عمل في القلب وعمل في الجوارح، ثم التواصي بالحق دعوة إلى العلم الذي ذكره لأن الإنسان يجب أن يدعو، فالدعوة فيها التواصي، يوصي بعضهم بعضاً بالحق والعمل به والتمسك به، ثم التواصي بالصبر، فإذا السورة فيها المسائل الأربع التي ذكرها فهي دليل على وجوب ذلك، ووجه الدلالة واضح وهو أن الإنسان خاسر إن لم

وكذلك الذين جاءوا بعده، ويقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (النحل: ٣٦)، يعني كل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا رِجْسًا أَنزَلْنَاهُ﴾ (النحل: ٣٦)، لعبادة الله هي معنى لا إله إلا الله واجتناب الطاغوت الذي اشتملت عليه الكلمة، الكلمة اشتملت على نفي وإثبات، النفي هو نفي المعبودات غير الله جل وعلا وهي الطواغيت، والإثبات إثبات العبادة لله وحده، فإذا قوله: «باب العلم قبل القول والعمل» أمر متفق عليه بين العلماء، أنه يجب على الإنسان أن يعلم أولاً وذلك أنه إذا عمل بلا علم فيكون شبه فعل الساهي والسكران والمجنون ليس ثابتاً، وإذا شكك بذلك شك وإذا نسي نسي، بخلاف الشيء الذي يكون بالعلم فإنه يثبت ولا يتزحزح عنه فلا بد منه ثم لا بد من العمل بالعلم، يعمل بعلمه ثم بعد ذلك يدعو ويصبر على الأذى فيه فهذه المسائل الأربع يبين منها أنها تكون فرض عين وتكون فرض كفاية.

وقوله: «اعلم رحمتك الله» خطاب لكل فرد من الأمة أن هذا يجب عليه، وعليه أن يعرف الشيء الذي يلزمه والشيء الذي يلزم الأمة عموماً ليس لازماً له إذا لم يكن من أهل العلم. والله أعلم، وصلى الله وبارك على نبينا محمد.

اعْلَمْ رَحِمَتَكَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ.

الشرح:

في الأول يقول: «اعلم أنه يجب علينا» وهنا يقول: «اعلم أنه يجب

على كل مسلم ومسلمة، والفرق بين هذا والذي قبله أن هذا فرض يتعين على كل فرد، يجب على كل مسلم ومسلمة.



تَعَلَّمْ هَذِهِ الثَّلَاثِ تَسَائِلٍ.

الشرح:

هنا يقول: «تعلم» أي يجب أن يعلم ذلك، وليس مجرد تعلم فقط، بتعلمها لأنها واجب علمها، وواجب أن يعلم ذلك، وهذا لا يتأني السابق وإنما هو تأكيد له.



وَالْعَمَلُ بِهِنَّ.

الشرح:

لا بد من التعلم والعمل، وسبق أن العلم قبل العمل، وأنه مقدم عليه لأن من شرط العمل أن يكون الإنسان عالماً لا بد، وفي ضمن هذا مسألتان:

أحدهما: أن يعلم ما كلفه الله به، وهذا أصل من الأصول الثلاثة. والثاني: أن هذا العلم الذي يعلمه يجب أن يكون عن طريق الرسول ﷺ ليس عن طريق العقل، ولا عن طريق التقليد، ولا عن غير ذلك، وهذا أصل آخر، أن يعلم أن الله أوجب عليه ذلك وأن يأخذ ذلك عن الرسول ﷺ ولهذا لا يمكن أن يفهل عمل من الأعمال إلا بهذا، كل الأعمال مبنية على ذلك، والعلم ليس مجرد الوصول إلى معرفة أن هذا واجب وهذا محرم، العلم المقصود به أن يعمل إلى القلب ويتحلى به القلب، ويصح

فاصداً ربه جل وعلا بذلك، خاضعاً له ذالاً لأمره ومتقاداً له، أما العمل فهو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر فقط، وهذا أمر يتقيد بالشيء المعين الذي عينه رسول الله ﷺ علينا، على كل مسلم؛ لأنه ما جاءنا بأوامر مطلقة وأوامر كثيرة ونواهي كذلك، بل أمرنا بخمس، خمسة أمور إذا حافظنا عليها دخلنا الجنة، والخمس سهلة وليست صعبة، الأولى منها: أن تعبد الله جل وعلا بالأمر الذي جاء به الرسول ﷺ ومعلوم أن هذه تشمل الخمس كلها، أي أن عبادة الله تشمل كل الخمس، ولكن خصت الخمس للتأكيد وزيادة البيان، وهي عبارة عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذه واحدة؛ لأن الرسول ﷺ الذي بين وهو الذي يأتي بالأمر والنهي من عند الله، فمعنى ذلك أنه لا بد لنا من واسطة بيننا وبين ربه، واسطة توصل إلينا أمر الله جل وعلا ونهيه؛ لأن الله لا يكلمنا ولا يرحمنا إلى كل فرد، هذه الواسطة هي الرسول ﷺ، والواسطة تكون في شيء معين فقط وليس في كل شيء، في إيصال الأوامر والنواهي، أن هذا أمر الله كلفنا باتباعه وهذا أمر الله كلفنا باجتنابه، فهذا الأصل الثاني، يعني كون الواسطة هو الرسول الذي بين لنا، الأول أن تعلم أننا متكلفون، وسيكرر هذا ويفصله فيما بعد، يفصله بطريقة السؤال والجواب، ولكن هو أتى به مجملاً هنا، ويكفي هذا الإجمال؛ لأنه واضح وبين.

• • •

أَنَّ اللَّهَ خَلَقْنَا، وَرَزَقَنَا،

الشرح،

مجرد الخلق والرزق هذا قد يدركه عاقل، وهذا لا يكفي في كون

الإنسان ينجو من عذاب الله جل وعلا، بل هذا لا يتميز به المؤمن من الكافر، الكافر يدرك ذلك ولا يفعمه، يدرك أن الله خالقه وأن الله رازقه ولا يجدي عنه شيئاً في ذلك.

ولكن المقصود بالخلق أن يستدل به على أنه مكلف لعبادة الله جل وعلا، خلق ورزق ولم يترك الخلق كاليهائم تأكل وتشرب وتلهو وتطرب بل قيد بأوامر وقيد بنواهي يجب أن يحتلها وإن لم يحتلها فإنه لا يكون عبداً لله جل وعلا بل يكون عبداً للشيطان وعبداً لهواه وأكله وشربه ولهوه وطربه، والإنسان لا يفتك عن هذين الأمرين، إما أن يكون عبداً لله جل وعلا أو يكون عبداً لهواه أو عبداً للشيطان أو عبداً لشهوته أو عبداً لرئيسه وسيده أو عبداً لزوجته أو عبداً لما شاء الله جل وعلا من الخلق، جزاء من الله جل وعلا أن الذي يعرض عن عبادة الله جل وعلا أن يجعله عبداً لمخلوق مثله، فيكون عبداً لمخلوق مثله ضعيف لا يملك شيئاً.

ثم بعد ذلك إذا انتهت حياته هذه وهي قصيرة ليست طويلة سيجمع مع معبوده في نار جهنم ويكون كل واحد يلعن الآخر، يلعته لأنه يرى أنه هو السبب في هلاكه، والواقع أنه هو الذي أهلك نفسه، وهذا كثره ربما جل وعلا في القرآن كثيراً حتى تشبه وتعرف ذلك وتجنبه، ومقصوده أن هذا أمر واضح، كون الله خلقنا أمر واضح وهو دال على وجوب العبادة، خلقنا وخلق لنا ما نأكل وما نشرب وما يفعنا كله من مخلوقات الله جل وعلا وتسخيره كما قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ رِيشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَالرُّجُلَ مِنَ النَّسَمَاءِ مَا فَنَزَعَ يَدَيْهِ مِنَ السَّمَوَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ مُؤْتَمَرِينَ

قَلَّمُوا ﴿ (البقرة: ٢١-٢٢).

ففي الآية أن كل شيء من الله جل وعلا، الإيجاد ابتداء والقيام على الحياة بعد الإيجاد بما يتفعا وما يصلحها، فهو الذي ابتداء وجودنا جل وعلا، وهو الذي أنعم علينا بما يصلحنا، يصلح أبداننا ويصلح نفوسنا ويصلح ما نحتاج إليه من دنيانا، كلها من الله جل وعلا وهو الذي أنعم علينا بما يصلحنا، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١).

فأمر العبادة أولاً ثم أمر بالدليل الذي يوجب أن نعبد وهو كونه جل وعلا خلقتنا وخلق لنا ما يتفعا، فهو مالكنا وهو الذي بيده حياتنا وموتنا، فيجب أن نعبد، فإذا لم تفعل ذلك فإنه قد أعد لنا عذاباً عظيماً جداً، عذاب النار. نسأل الله العافية.



وَلَمْ يَهْرُؤْنَا هَمَلًا.

الشرح:

الهمل هو الذي لا يؤمر ولا ينهى ولا يرجع، ولهذا تسمى الإبل التي تنقلت من أصحابها: همل لأنها ليس لها أحد يوجهها ويقوم على مصلحتها بل تسلك الطريق، إما أن تهلك وتعطب وإما أن تجد من يقوم عليها من غير أهلها، فالهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى، والله جل وعلا نفى ذلك، بقول جل وعلا: ﴿لَيْسَ الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ شَكْرًا﴾ (الاحقاف: ١٧). يعني لا يؤمر ولا ينهى ﴿لَوْ كَانَ ظَلَمْتُمْ فِيمَنْ لَكُمْ آيَاتُ أَنْ تُنذَرُوا﴾ (الأنعام: ٦٦).

الزَّوْجِ الْأَكْبَرِ وَالْأَكْبَرِ ﴿٣٦﴾ الْقِسْمُ الَّذِي يَقْتَضِي عِلْمَ أَنْ يُحْيِيَ الْكُلُوبَ ﴿(البيان: ٣٧-٤٠)﴾ يقول جل وعلا أن كثيراً من الناس أو أكثرهم يتصورون فيما هم فيه من حياتهم أنهم لم يكلفوا بالأمر والنهي، أنهم خلقوا لهذه الحياة يتصرفون فيها حسب مراداتهم وأهوائهم، وهذا هو الأمل، يتصرف على ما يروق له، مثل ما يقول كثير من الناس أنا حر أفعل ما أريد، هذا كذب لست حراً أنت عبد لله جل وعلا يجب عليك أن تستل أمره تتجنب نهيهِ، فالذي يقول كذا يعني أنه شبه البهائم، شبه البهيمة ﴿الغَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدَى﴾ (البيان: ٣٦).

﴿سُدَى﴾ هو الذي لا يזمر ولا ينهى مهمل، ثم بين الدليل على أنه لا يترك سدى من نفس الإنسان، بين ذلك من نفسه فقال: ﴿الَّذِي يَتْرُكُ سُدَىً يُتْرَقُ﴾ (البيان: ٣٧). كان قطرة من ماء مهين قدرة لو تركت ساعة من النهار ففسدت وأتنت ولكن الله جل وعلا جمع بينه وبين ماء المرأة في قرار مكين وجعل من الأسباب الداعية لذلك ما هو دليل على أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن يعبد ويطاع، فركب الشهوة للجائين الداعية لذلك وإلا لو ترك الإنسان وعقله بدون مؤثرات ما التفت؛ لأن المناظر سيئة، عورة تلتقي بعورة والمقل ينفر من ذلك، ولكن الله جل وعلا بقدرته وحكمته ركب في الإنسان الشهوة التي تدعو إلى ذلك ثم الأمور الداعية لإخراج الماء من مكان ضيق، يخرج من بين الصلب والترائب ثم يستقر في مكان محفوظ ثم يكون الله جل وعلا من الإنسان، وهذا الماء المهين يستحيل ثم يصبح دم ثم يستحيل ويصبح قطعة لحم ثم يكون عظاماً ثم يركب منه أعضاء وأجزاء ويفتح فيه منافذ من القم والأنف والعينين

والأدنين ويركبه تركيباً من أعجب ما يكون.
من الذي يفعل هذا؟

لا المرأة ولا الرجل ولا أحد من الخلق، فأيات الله جل وعلا في الإنسان ﴿إِنَّمَسَّبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَزْنَهُ سُدَىٰ﴾ (البقرة: ٢٢٦). هذا معنى قول المؤلف «خلقنا» يعني يجب أن يفكر الإنسان في خلقه، وذكر الله جل وعلا خلق الإنسان في كتابه كثيراً ﴿فَنَسُفِرُ الْإِنْسَانَ بِمِثْلِهِ﴾ (الطارق: ٥)، بين أنه خلقه خلقاً صحيحاً وقال: ﴿وَرَفَعْنَا سِكْرًا أَفَلًا تَجِيرُونَ﴾ (المدثرات: ٦١)، يعني في أنفسكم آيات تدل على أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن تعبدوه توحيدوه وأن تمتثلوا أمره، ثم جعل هذا دليلاً على النشأة الأخرى، على المعاد، على أنه سيعيدهم مرة أخرى ويجزيهم على أعمالهم، فهو دليل الموجود على الموجد ودليل على الجزاء والإعادة التي سوف تكون بعدما تفتى هذه الأبدان وتفتى أرواح إما معذبة أو منعمة.



بَلْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رَسُولًا،

الشرح:

هذه هي الأولى في ضمنها ثلاث مسائل هي الأصول الثلاثة، في ضمنها وجوب عبادة الله جل وعلا وفيها أن العبادة تكون بالأمر والنهي، بأمر الله ونهيه، وفيها أن الأمر والنهي يأتي به الرسول ﷺ، فهذه هي الأصول الثلاثة التي يجب على المسلم أن يتعلمها ويعرفها وما بعد هذا كله من الواجبات التي تجب لهذه الأصول، كون العبادة توحيداً، وتوحيد الله جل وعلا، أن يفرد بالعبادة، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا

كانت لله وحده وهو التوحيد، أما عبادة مشتركة تكون بين الرب جل وعلا وبين غيره من المخلوقات، فهي وإن سميت في اللغة عبادة فهي باطلة وهي الشرك الذي حرم الله جل وعلا الجنة على صاحبه إذا مات على ذلك.

فالرسول الذي يرسله من حكمته جل وعلا ورحمته أنه يجعل معه آيات تدل على أنه رسول من عند الله لئلا يفتر الناس بأن كل من قال: أنا رسول أو أنا جئت بكذا وكذا من عند الله يلتبس ذلك بما هو حق، فجعل له آيات في نفسه كما سيأتي وآيات يجعلها الله جل وعلا له لا قدرة له فيها، وإنما هي من خلق الله جل وعلا وبأمره وإرادته كما سيأتي في كيفية معرفة الرسول.

كيف تعرف رسولنا ﷺ، وكيف تعرف الأمة رسولها؟ كل أمة لها رسول ولا بد أن تتحقق من ذلك، أما معرفة الله جل وعلا بأنه خالقنا، فإذا لم يهتدي الإنسان إلى ذلك في نفسه فإن أمامه أشياء كثيرة جداً تدل على أن الله خالقه، ومن المخلوقات المشاهدة كما قال الله جل وعلا: ﴿سَتَرْنَاهُمْ﴾ **بَابِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْهُدَىٰ** ﴿تسكت: ٥٣﴾ وسواء قلنا في قوله: ﴿الْهُدَىٰ﴾ الرسول أو الدين الذي جاء به كله سواء ويشمل هذا وهذا، يبين أن الرسول حق جاء من عند الله وأن الدين الذي جاء به حق جاء من عند الله كله يبين من ذلك بالنظر.

والله جل وعلا جعل في الإنسان عقلاً منذ خلقه، وفطره على فطرة المعرفة، معرفة المؤثر أن كل أثر له مؤثر ولا بد حتى الطفل الصغير، إذا شرب وتألم، لو قلت له لم يضربك أحد أسكت، لا يقتنع بذلك ولا

يرضى حتى تقول اضرب من ضربك، ومن الذي ضربك أعاقبه، عند ذلك يفتتح لأنه يعرف أن الضرب له ضارب، والأثر له مؤثر، هذا أمر مفسطور عليه المخلوق حتى الصغير الذي لم يميز حتى الآن.

فلهذا إذا نظر الإنسان لما حوله من الجبال ومن الأشجار ومن الأنهار ومن البحار ومن السماء ومن النجوم والرياح والسحاب والأمطار وغيرها لا بد أن يكون لهله موجد أوجدها، لأنه لا يمكن أن يكون جبل يوجد جبل ولا شجرة توجد شجرة، ولا إنسان يوجد إنساناً، ولا يمكن أن تكون سيارة أوجدت سيارة، أي صنعت سيارة، لا بد أن يكون الموجد غير هذا الذي نشاهده من الموجودات، ولا بد أن ينتهي العقل إلى شيء يفتتح به، لأنه لو قيل مثلاً: هذا المخلوق أوجده مخلوق أكبر منه، فذلك المخلوق من أوجده؟

أوجده مخلوق آخر ثم تتسلسل الأمور إلى ما لا نهاية وكل هذا باطل، ودليل على البطلان.

فلا بد أن تنتهي المسألة عند خالق عليم بصير قدير بيده ملكوت كل شيء، هذا من الآيات التي يدركها العقلاء كلهم بالمشاهدة والنظر، وهي كافية في وجوب عبادة الله جل وعلا.

ثم كذلك من الآيات إجابة الدعاء، كل إنسان جرب هذا وكل مخلوق سواء كان مؤمناً أو كافراً، لأنه لا بد أن يضطر، تضطره الحياة إلى أمر يقع فيه فينتجه إلى من يعلم أنه ينجيه من هذا الكرب ومن هذا الأمر فيجيب بالفرج بعد الالتجاء والصدق، ولهذا جعل الله جل وعلا ذلك دليلاً على وجوب عبادته كما قال جل وعلا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾

وَيَكْتُمُ الشَّوْبَ ﴿۱۶۲﴾ (النمل: ١٦٢)، من؟ الله جل وعلا، هو الذي يجب المضطر إذا دعاه، حتى إن البهائم إذا وقعت في شدة وكرب ترفع رؤوسها إلى ربها جل وعلا تستغيث به، حتى الحيوانات جعل الله جل وعلا فيها الإحساس والإدراك لذلك.

وقد قص الله جل وعلا علينا أشياء فيها عبر ما ذكره عن نبيه سليمان عليه السلام، أنه لما أتى على وادي النمل وقد أعطى منطلق الحيوانات ومنطق الطير، سمع نملة تحذر قومها وأصحابها تقول: ﴿الْمَطْلُوعُ مَسْكِنَاتِكُمْ لَا يَحِيلَنَّ عَلَيْكُمْ سَائِبُونَ وَيُعْرِدُونَ وَفُرْقًا يَتَشَرَّبُونَ﴾ ﴿النمل: ١٦٨﴾ لأنكم لستم عنده شيء، لا يراكم، هذا من آيات الله جل وعلا، في مستدرك الحاكم وغيره، أن النبي ﷺ ذكر نبياً خرج بقومه ليستفي بهم فوجد نملة مستلقية على ظهرها ورافعة قوامها إلى السماء وتقول: اللهم إنا خلق من خلقك فلا تمنع عنا بذنوبنا فضلك. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم^(١).

وفي الحديث أيضاً عنه ﷺ أن الحباري ثلعت عصاة بني آدم إذا تأخر القطر، تقول: متعنا القطر بسبيكم، ويقول ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»: حدثني الثقة يقول أنه شاهد نملة تحاول أن تحمل حبة كبيرة فما استطاعت، فذهبت وجاءت بجماعة من النمل تستعين بهم، فلما وصلت إلى المكان الذي فيه الحبة رفعت الحبة، فدارت ودارت، فلم

(١) عزاء السيوطي في «الدمع المنثور» لابن أبي شيبة، وأحمد في «الزهدة»، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق التيمي.

وانظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم» ص (٣٢١، ٣٢٨).

يجدن شيئاً فانصرفن، فوضعت الحبة وجاءت التملة التي كانت تحاول فحاولت مرة أخرى فما استطاعت، فذهبت وجاءت بالجماعة، فلما أقبلن رفعتها، فدارت ودارن في المكان فلم يجدنها فانصرفن، فوضعتها فجاءت تحاول فما استطاعت فذهبت وجاءت بالجماعة، فلما وصلن إلى المكان رفعتها ثالثة، فدارت ودارن في المكان فلم يجدنها، فظاهلن عليها فقطعنها، لأنها كثبت عليهن ثلاث مرات.

وفي تاريخ البخاري عن عمرو بن ميمون أنه رأى قروداً زنت فاجتمعن عليها القردة فرجمتها ورجمتها معهم في الجاهلية^(١)، وإذا نظر الإنسان في الحيوانات والطيور كيف جبلها الله جل وعلا على مصالحها، كيف إذا أحست الطيور قبل أن تقترب تبدأ، تجمع العش ونهية ثم يهتن مكاناً للبيضة ثم يحكفن عليها حتى تنفس ثم يقمن بتربيتها وجلب الماء والطعام لها إلى أن تصل إلى الطيران ثم بعد ذلك لو رأيتها تطلب منهن شيئاً فائتنها، بأمرتها بالذهاب لطلب الرزق، فكل هذا ليس من عقل فيها، وإنما هو أمر جبلها الله جل وعلا عليه إذا نظر الإنسان إليها علم أن لها خالقاً خلقها ﴿ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أُنشَرْنَا كُلَّ فَرْقٍ خَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَيْتَنَا ۖ﴾ [٥٠: ٥٠].

جل وعلا هداها لمصالحها، في مصالح حياتها، وأما الهداية التي فيها عبادته فهذه لمن كلفه الله جل وعلا بعبادته من الجن والإنس، وأما هذه فهي هداية لحياتها وهي من مصالح بني آدم، ولهذا يقول القائل:

(١) البخاري (٢٨١٩) كتاب مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية، من طريق تعميم من حماد، قال: حدثنا هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

جل وعلا، في كل شيء آيات، والله جل وعلا يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُخَلِّقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ١٣٥)، هل يمكن أن يكون مخلوق خلق من غير خالق؟

هذا مستحيل، وهل يمكن أن يكون المخلوق خلق نفسه؟

هذا لا يمكن، فهو مستحيل، إذا لا بد أن يكون له خالق، وهذا الخالق قد ظهرت آياته جل وعلا وبانت، فهو الذي يجب أن يعبد، فهذا أصل يجب أن يُعلم ولا يجوز للإنسان أن يكون جاهلاً لذلك؛ لأنه يكون مستحقاً لعقاب الله جل وعلا، فإذا كان الله خلقنا فمن المستحيل أن يتركنا بلا أمر أو نهى؛ لأن الله خلقنا لعبادته، والأمر والنهي لا يكون لنا مباشرة من ربنا جل وعلا وإنما يكون من طريق الرسول ﷺ، فهذه أصول ثلاثة يعرف الإنسان بها ربه الذي يجب أن يعبده، ويعبده بأمره ونهيه، وأمره ونهيه طريق التعرف عليها عن الرسول ﷺ، ولهذا قال: «بئس أرسل إلينا رسولاً»، وهذا ليس خاصاً بآمة كل أمة لها رسول، والمسلم يجب عليه أن يؤمن برسول الله جميعاً، ولكن من باب الاختصار أنه يؤمن برسوله على سبيل الإجمال والتفصيل، على سبيل التفصيل برسوله الذي كلف به، يعرف الأوامر التي جاء بها والنواهي التي كلف باجتنابها، ويؤمن برسول الله فيعلم أنهم أرسلوا إلى أمم وأنهم جازوا بالهدى ودين الحق، ورسول الله الذين قصهم الله علينا في القرآن في كل قصص أنهم جازوا بهذا، أي بوجوب عبادة الله جل وعلا وأن يخلص له الدين، أن يخلصوا له العبادة، وأن من اتبعهم وأطاعهم سلم من عذاب الله ونجى

في الدنيا ووعد في الآخرة الجزاء العظيم الذي يسعد فيه أبد الأبدين وإذا عصي فإنه يعاقب في الدنيا ثم بصير بعد ذلك إلى جهنم، فقص علينا قصة أبونا لما خلق آدم من تراب وعلمه أسماء كل شيء وأسجد له ملائكته، أمرهم أن يسجدوا له ثم أسكنه الجنة وخلق زوجته منه، نام نومة فاستيقظ وهي عنده، أباح الجنة إلا شجرة واحدة، قال: هذه الشجرة لا تقرباها وحلرهما من الشيطان، ولكن أمر الله الذي قضاء لا بد منه، وقص علينا قصة نوح مع قومه كيف أهلكتوا ولماذا، لأنهم عبدوا غير الله ثم قص علينا قصة هود مع قومه ثم قصة صالح مع قومه ثم قصة شعيب وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل، والرسل الذين جاؤوا في القرآن خمس وعشرون رسولاً ذكرهم الله جل وعلا بقصصهم وأخبر أنهم جاؤوا بالهدى إلى قومهم، وقد قال بعض العلماء أنه يجب على المسلم أن يعرف الرسل الذين جاؤوا في القرآن؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أُنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ وَمَا كَانَ يُنزَلُ إِلَّا فِي قُرْآنٍ مَعْرُوفٍ﴾ البقرة: ١٢٨٥. هذه من الأصول، لا بد من الإيمان بالرسل كما أنه لا بد من الإيمان بالملائكة كما سيأتي.

فَقَرَنَ أَطَاعَةَ دَخَلَ الْجَنَّةَ.

الشرح:

أطاعه: اتبع ما جاء به؛ لأن هذا أمر الله، أمرنا أن نفعله، وهذا نهيها أن نتركه، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، وليس الأمر مطلق هكذا، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، قال لنا: عبدوا الله ولا

تشرکوا به شيئاً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان وحجوا البيت، هذه الأوامر.

أما التواهي فحرم علينا محرّمات معينة عينها، وما سكت عنه ولم يعينه فهو مباح عفواً عفا الله عنه، فالأمر واضح ليس فيه خفاء، ثم التواهي التي نهانا عنها لا مصلحة لنا فيها لا يترتب عليها حياة ولا تقع بل إنما يسولها الشيطان وتزينها النفوس، يعني أن المصلحة في الأوامر التي تفعلها أما التواهي فالمصلحة في اجتنابها، ولهذا صار النهي أكد من الأمر، كما في صحيح مسلم «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(١)، لأن هذا سهل، مجرد الترك، ترك واجتناب فلا يترتب عليه حياة ولا مصلحة، والمقصود أن طاعة الرسول ﷺ فيما أوجبه الله جل وعلا علينا، الذي جاء به، وما حرمه علينا، أما وراء ذلك من الأمور المستحبات وترك الأمور المكروهات فهذا فضل، إذا فعله الإنسان يتحصل على خير وترتفع به درجات، ولهذا جعل الله جل وعلا أهل السعادة ثلاثة أقسام كما قال الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ لَوَرِثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اسْتَفْتَيْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَفَلَّحْنَا لَمْعَ عَيْنِهِمْ وَجَمَعْنَا قُلُوبَهُمْ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ مِثْرًا وَلَهُمْ آيَاتُ لِقَائِي يُعْرَفُونَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

الغالب لنفسه هو الذي فُضِرَ في الواجبات، ترك بعضها وارتكب

(١) البخاري (٧٦٨٨) كتاب الاختصاص بالكتاب والسنة باب الاعتقاد بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حَفَّتِ جَنَابُهُ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ومسلم (٢٣٠٧) كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه وتوقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الألباني في الإرواء الغليل.

بعض المحرمات، ولكن الأصول معه، أصل الدين وأصل التوحيد معه لم يعمل الشرك ولم يجحد واجبات الله ولم يحل محارم الله بل ارتكب ذنوباً واعترف بأنه مذنب فيموت على هذا، معه التوحيد ولكنه معه ذنوب يترك واجبات وارتكاب محرمات وهو معترف أنه مقصر وأنه مذنب، فهذا من السعداء وإن أصابه ما أصابه، إذا عاقبه الله جل وعلا على ترك الواجب أو فعل المحرم، فإنه يكون عقاباً مؤقتاً، إما في القبر فقط، فإن لم يغي ذلك يكون في الموقف من الكرب والشدة؛ لأن كرب الموقف يتفاوت تفاوتاً عظيماً وإن لم يكفي ذلك يكون في النار، يوضع في النار قدر جرمه ثم بعد ذلك يخرج فيكون من أهل الجنة أبداً خالداً مخلداً فيها.

أما المقصد فهو الذي اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم، هذا إذا اقتصر على فعل الواجب وترك المحرم فإنه لا يتاله عذاب، فهو من السعداء ولكن من عباد الله من هو أرفع منه درجة وهم السابقون بالخيرات؛ الذين يتفربون إلى الله بالتواضع بعد أداء الفرائض ويتفربون إليه بترك المكروهات بعد ترك المحرمات، هؤلاء هم الذين يسبقون إلى الدرجات العلى، وهم أيضاً يتفاوتون، فالمقصود أن هذا طاعة الرسول الذي جاء به، أمر واضح ليس فيه حفاة، فمن أطاعه في الجملة دخل الجنة؛ لأنه عبّد الله ولم يشرك به شيئاً وإن ترك بعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات فهو في الجنة مآكلاً إليها، أما إذا لم يطمعه وعصاه فمثل هذا يقال أنه كافر؛ لأنه رد قول الرسول ﷺ إما جحداً وإكثاراً وإما عناداً وتكبراً.

أما الطائع والمرتكب المحرم فهذا لا يقال أنه كافر ولا معاند بل سؤلت له نفسه وزين له الشيطان فوقع في المحرم وترك بعض ما وجب عليه وأمره إلى ربه جل وعلا، إن شاء عفا عنه وإن شاء أخذه بعدما يعاقبه بما يستحق بكرمه بأن يدخله الجنة.



وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ،

الشرح:

وقوله: «من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار»^(١). يعني أن المصير بعد الموت إما إلى الجنة أو إلى النار، فهذا من الفروع التي يجب أن يؤمن بها، فروع هذه المسألة، أن الله خلقنا وتبليغنا، من واجباتها، أن يعلم بالجزاء، والجزاء يكون بعد الموت مباشرة، ثم يتصل هذا بيعت الأبدان وتركيبها مع الأرواح تركيباً لا يقبل المفارقة أبداً، فيتم الجزاء هناك فيكون إما في الجنة وإما في النار، أما أوله فيكون بعد الموت مباشرة، وهو نعيم القبر أو عذابه، هذا من الجزاء، جزاء الآخرة، ولكنه أمر من الأمور الآخرة، ولهذا الإنسان إذا مات قامت قيامته، قامت ساعته، والساعة قسمان: ساعة كبرى تعم الخلق كلهم وهي النسخ في الصور، وساعة خاصة لكل إنسان إذا مات قامت قيامته.



(١) البخاري (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأكل، بسنن رسول الله ﷺ

وقوله الله تعالى: ﴿رَبِّكَ يَتْلُو كِتَابَكَ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وأحمد (٨٣٧٣) إمامي

مسند المكتوبين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ذكره الأمامي في المشكاة.

وَالَّذِينَ قَوْلُهُ لَكُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْمِعُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ فَسَبِّحُوا لَهُ سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقَائِمِ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿الزمر: ١٥﴾.

الشرح:

هذا فرد من أفراد الأدلة الكثيرة التي تدل على أن الله جل وعلا كلّفنا وتعيّننا، وتكليفه لنا بواسطة الرسول ﷺ، والإرسال معناه أن يكلف بإبلاغ أمر الله جل وعلا، وأمر الله هو الرسالة، أمره ونهيه والرسالة كما هو معلوم، فالرسول ﷺ رجل حر مكلف أكرمه الله جل وعلا بخطابه بوجهه إليه وكلفه بإبلاغه العباد، وسيأتي كيفية معرفة الرسول، كيف نعرفه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿الزمر: ١٥﴾،

وقوله: ﴿سَبِّحُوا لَهُ﴾ ﴿الزمر: ١٥﴾، يعني أن الرسول يشهد علينا بأنه بلغنا، وهذا يكون يوم القيامة، يشهد أمام الله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿كَذَّبْتُمْ أَنْبِيَاءَ بَدَّلْتُمْ أَلْسِنَةً قُلُوبَهُمْ خَسَنَ أَعْيُنُهُمْ كَفَرُوا فَلَسَنُكَذِّبَهُمْ﴾ ﴿الأنعام: ١٠٦﴾ لا بد من سؤال الرسل وسؤال المرسل إليهم، هل جاءكم الرسول؟ هل بلغكم؟ هكذا يسألون، إن أنكروا ماذا يقال؟ يسأل الرسول: هل بلغتم؟

فرسول الله ﷺ شاهد علينا، يشهد علينا والله جعله علينا شاهداً، كما ذكر الله جل وعلا في آيات متعددة، أنه يأتي أمام الله جل وعلا ويقول: إني بلغتهم، وكان ﷺ في المواقف التي تكون له في اجتماع الناس يستظفهم ويسألهم هل بلغتم؟

فإذا قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد... اللهم اشهد. قال هذا يوم عرفه، وقاله في غير عرفه، وقاله في كل مناسبة، قاله إذا بلغ واجباً وإذا نهى عن محرم، كما أنه لما نهى عن الغلول قال: **ألا ألقين أحدكم بأني يوم القيامة على رأسه بعير له رغاء يقول يا رسول الله أنقذني**، فأقول: لا أم لك من الله شيئاً قد بلغتك^(١) ثم ذكر بقية الأموال، فالرسول يكون شاهداً علينا، أما شهادته على من شاهدتهم وعاشتهم فهو يشهد عليهم بأنهم تلبغوا حيث وصل إليهم أمره ونهيه، وإن شهادته على بقية الأمة فلا تشر ذلك ويبلغ أصحابه وكلف أصحابه أن يبلغوا من بعدهم، والذين بعدهم يبلغون من بعدهم إلى يوم القيامة، وهذا الذي يقول الشيخ أنه يجب علينا العلم والدعوة يعني التبليغ الذي كلفنا به، هذا في العموم وقد يكون في الخصوص كما سبق، وقد ذكر الله جل وعلا في القرآن أن الرسل شهداء على قومهم كل رسول يكون شهيداً على قومه وجاء تفصيل ذلك في أحاديث الرسول ﷺ، حتى أنه لما ذكر أننا نكون شهداء على الناس ﴿وَكَلَّمَ رَبِّيَ جَمَلًا لَكُمْ أَنْتُمْ وَسَطًا لِنَحْمُوهَا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١١٢). فهذه الأمة تشهد للرسول بأنهم تلبغوا والرسول ﷺ يشهد علينا بأنه بلغنا، وشهادتهم للرسول لئلا تلبغوه من كتاب الله الذي جاء به رسول الله ﷺ ونقص عليهم قصص الرسل، بأن توحدها قومه بالبينات وجاءهم بالهدى فكذبوه فيشهدون أنه بلغ قومه،

(١) البخاري (٣٠٧٣) كتاب الجهاد والسير، باب الغلول وقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتْلُ بِأُتِ بِسَاطِرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٧١)، ومسلم (١٨٣١) كتاب الإمارة، باب غلط تحريم الغلول، من حديث أبي عمرو رضي الله عنه، ذكره الألباني في «المشكاة».

وكذلك هو وصالح ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل الذين جاؤوا بالرسالات، هذه الأمة تشهد لهم لأنها تبليغ ذلك مما جاء به رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الزلزال: ١٥). كثيراً ما يقرون الله جل وعلا بين رسولنا ﷺ وبين موسى، وكثيراً ما يردد عليه قصة موسى، لأن موسى عليه السلام شبيه بمحمد ﷺ في دعوته وفي مزاولته الناس، وفي العذاب الذي أودى به، وفي البيات التي جاء بها، ولهذا لما قال له الرجل الذي جاء ونصب نفسه ناصحاً لرسول الله ﷺ - للغرور والشيطان - قال له: أعدل فإنك لم تعدل. قال: «ويلك لقد هلكت إن لم أعدل فمن يعدل؟» وقال: «يا مني الله جل وعلا ولا تأمنوني على المال. قال: رحم الله موسى، لقد أودى أكثر مما أوديت نصيراً، وهذا هو سر قرن قصته بقصته وكتابه بالكتاب الذي جاء به الرسول ﷺ حتى يتسلى بذلك ويكون له فيه معتبر.

﴿فَمَنْ يَرْجِعْ إِلَى الرَّسُولِ فَأُعَذِّبْهُ مِثْلَ آبَائِهِ﴾ (الزمر: ١٦). هذا تمثيل، وإلا فرسولنا أرسل إلينا كما أرسل لسائر الأمم والرسالة واحدة، ولهذا أخبر الرسول ﷺ أن الرسل دينهم واحد، وقال الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَا بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ لَا يُنْفَكُ﴾ (ال عمران: ١٧). فكل رسول جاء بالإسلام.



الثانية:

أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا تَمَلِكُ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

الشرح:

تقدم أن الشيخ رحمه الله ذكر أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل، والعمل بهن، وذكر أنها العلم، والدعوة إلى العلم، وكذلك العمل بالعلم، والتصير على الأذى فيه، هذه مقدمة في الأصول، وهي داخلة في الأصول، وكذلك الثلاث المسائل التي ذكرها، تعود إلى مسألة واحدة وهي وجوب عبادة الله، وحقوق العبادة ولوازمها، فمن عبد الله وجب عليه أن يترك الشرك؛ لأن العبادة ما تصلح إلا بترك الشرك مطلقاً، ولا يمكن أن توجد عبادة إلا بترك الشرك، ثم لا يمكن أن تكون عبادة بموافقة الأمر واجتناب النهي إلا بمعاداة المشركين، ولا بد لأن من يدعي أنه يحب الله ثم يوالي المشركين فهو كاذب لا يمكن أن يجتمع هذا أبداً، فهو أمر من لوازم العبادة.

أما الإخلاص الذي عبر عنه بأنه ملة إبراهيم فهذا أصل العبادة: لا بد أن تكون بالإخلاص والمقصود أن المسائل الثلاث هذه تزول إلى شيء واحد وهو وجوب عبادة الله جل وعلا، الأولى أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولاً، معنى ذلك أن الحججة قامت علينا، ومعناه أننا مخلوقنا ودلائل الخلق قائمة بأنفسنا وبالشئ الذي يدور حولنا من آيات الله الفعلية وآياته القولية التي يرسل بها الرسل وآياته الخلقية في الأنفس وفي الأفاق، فهي دلائل قائمة توجب أن يكون المعبود هو الله حقاً وألا يعبد إلا هو، ولكن العبادة لا تكون إلا بما جاء به الرسول ﷺ ولهذا قال «لم يتركنا هملًا» يعني أنه أمرنا ونهانا عن أشياء معينة، وفعل هذه العاصرات واجتناب المحظورات هو التكليف بالعبادة التي تعبدنا

الله جل وعلا بها.

أما الثانية وهي قوله: «أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل» يعني أن العبادة يجب أن تكون لله، والشرك هو السهم في الشيء، إذا كان هناك شيء معين وصار فيه شركاء فللكل واحد سهم منه، فالعبادة لا تجعل أسهم، ما يجعل سهم منها لله وسهم منها للنبي وسهم للملك وسهم للولي، يعني نصيب، يجب أن تكون العبادة كلها لله خالصة، والشرك الذي يقع من الإنسان على نوعين كما هو معلوم، نوع أكبر يجعل الذي يفعله إذا مات عليه خالداً في النار ميؤوساً منه بأن يناله رحمة من الله، هذا إذا مات على الشرك، لقول الله جل وعلا:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الشَّاكِرِينَ وَيَعْلَمُ مَا تَدْوَنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاكُرُ﴾ (النساء: ١١٨). وقوله

جل وعلا: ﴿وَمَا تُمْ يَكْفُرِينَ مِنَ الْكُفْرِ﴾ (البقرة: ١٦٧). وقوله جل وعلا:

﴿إِنَّهُم مِّنْ يُشْرِكُونَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو الْعَرْشِ وَمَا يُظَاهِرُونَكَ مِنَ الْكُفْرِ أَكْثَرُ وَمَا يُظَاهِرُونَكَ مِنَ الْإِسْلَامِ أَكْثَرُ﴾ (النساء: ١٧١).

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن المشرك إذا مات مشركاً أنه خالد في النار، مهما كان وإن كان عابداً وإن كان يصلي ويصوم، فإن مات مشركاً وإن كان عنده صلاة وصوم فهي لا تنفعه.

والنوع الثاني: شرك أصغر، هو كثير، يقع من الناس كثيراً، ويقصد به حب النفس في الواقع، كون الإنسان يحب نفسه، فيعمل أعمالاً يظهرها للناس حتى يشوا عليه بها، حتى يمدحوه، حتى يحموه، ويكون ذلك من حظ نفسه، فهو يعبد نفسه، أو أنه يعمل أعمالاً من أمور الطاعات ويقصد

بها أمور الدنيا، يتحصل على شيء من أمور الدنيا، وهذا يختلف باختلاف ما يقوم في قلب الإنسان، قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، ولكن الأصغر جاء أنه يسير الرياء يعني قليل الرياء والحلف بغير الله، وقول العبد: لولا الله وأنت، لولا كذا لكان كذا، وما أشبه ذلك من الألفاظ التي فيها الاعتراض على القدر وعلى تدبير الله جل وعلا وإحكامه وإتقانه وتصرفه، فإن هذا نوع من الشرك اللفظي وهو من الشرك الأصغر الذي لا يُخرج الإنسان من الدين الإسلامي، ولكنه مع كونه أصغر هو من أكبر الكبائر ومن أعظم الكبائر نسأل الله العافية، والعبادة التي أوجيها الله لا تكون إلا بالإخلاص، والإخلاص معناه أن يكون العمل خالصاً لله جل وعلا ليس به شيء من الرياء والشرك والشوائب التي تنقصه.

وقوله: «إن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل» هذا تفسير للعبادة لأن العبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت هكذا، إلا إذا كانت خالصة لله جل وعلا، أما العبادة في اللغة فهي مأخوذة من الذل والخضوع، قال: ذل إذا عبد، ولهذا يقال: طرقت معبد، إذا ذل لوطه الأقدام وصار مسلوكاً واضحاً معبد، فهو مأخوذ من الذل والسكون والخضوع والعبادة مأخوذة من هذا، وهذه تحصل لله جل وعلا، وتحصل لغيره والعبادة بهذا المعنى تكون لله وتكون للمخلوقات، ولكن العبادة الشرعية هي أن تكون خالصة لله جل وعلا وليس فيها شيء لغيره.



وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ بِمِثْلِ مَا دَعَوْا مَعَ اللَّهِ لِحَدِّ﴾

الشرح

يعني هذا فرده، وإلا القرآن كله أدلة على هذا الأصل العظيم، كله من أوله إلى آخره، أوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الثامنة: ١٢﴾. هذا دليل على وجوب العبادة لله جل وعلا، لأن الحمد أعظم العبادات، أعظم الحمد أن تعبده بها عبادة، فيجب أن تكون لله رب العالمين، والسورة كلها في العبادة، إما عبادة الربوبية وإما عبادة الأسماء والصفات، عبادته بأسمائه وصفاته كقول الرحمن الرحيم، أو عبادته بالمعاملة التي تجري من العبد ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قَدْ أَنزَلْنَا لَكَ الْوَحْيَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿الثامنة: ٥٠﴾. فكذلك سور القرآن كلها في التوحيد وفي ذكر الجزاء عليه وذكر جزاء من ترك التوحيد وعقابه وذكر ما قضه الله جل وعلا مما فعل بأهل التوحيد أو أهل الشرك منذ أرسل أول رسول نوح إلى أن ختمت الرسل بمحمد ﷺ.

فالواقع أن القرآن كله في التوحيد، ولكن هنا يقول في هذه الآية أنها واضحة ﴿وَأَنَّ السَّمْعَ لِلَّهِ﴾ (الن: ١٨)، ﴿وَأَنَّ الْوَاوِ عَاطِفَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ﴾ وهي قوله: ﴿فَلَوْ لَوْحٌ لِنُورٍ لَأَنبَأَهُ﴾ (الن: ١٦)، الصورة عطف على هذا، ﴿وَأَنَّ السَّمْعَ لِلَّهِ﴾ (الن: ١٨)، يعني أوحى إلي أن المساجد لله، والوحي أمر، والمساجد إما أن تكون مواضع السجود الأماكن التي بنيت للسجود فيها، والصلاة تكون لله يجب أن تكون محلاً للعبادة الخالصة لله جل وعلا، وألا يكون فيها شيء لغير ذلك، أو أن تكون المساجد أعضاء السجود، يعني أنها لله، يجب أن تكون خالصة لله وألا يكون سجود العبد لأحد من الخلق أو شيء من الخلق.

﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ [الن: ١٨]. الدعاء هنا يقصد به دعاء العبادة وهو غالب ما في القرآن؛ لأن الدعاء ينقسم في القرآن إلى قسمين: دعاء يسمى دعاء المسألة وهو السؤال لشيء معين كقول الإنسان: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، هذا دعاء مسألة، ودعاء عبادة قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وكقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [اعتر: ٦٠]. هذه فسرت بدعاء العبادة وفسرت بدعاء المسألة، وكل دعاء وعبادة يتضمن المسألة وكذلك المسألة تتضمن الذل والخضوع والحاجة وهي عبادة؛ لأن العابد يعبد حتى يتحصل على ما ينفعه من المعبود ويدفع بعبادته ما يضره ويخافه ويرهبه من المعبود الذي يملك ذلك، ولا يد أن يكون المعبود مالكا للمرجو ومالكا لدفع المرهوب المخوف وإلا تكون عبادته ضلال كما بين الله جل وعلا للمشركين أن عبادتهم ضلال ولا تجدي شيئا.

وقوله: ﴿الْحَدَا﴾ [الن: ١٨]، نكرة جاءت في سياق النهي تكون عامة، فلهذا شملت الخلق كله، فلا يجوز أن يدعوا غير الله جل وعلا، فهنا من خصائص الله، ومعنى ذلك أن الله خلق العباد والزعمهم بحقه وحقه والعبادة، فيجب أن تكون خالصة له، فإن قدر أن أحدا منهم يجعل من العبادة شيئا لغيره فهو الشرك الذي أخبر الله جل وعلا أنه لا يغفروه.



أَنْ تَمِّنَ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبًا

الشرح:

هذه المسألة من لوازم العبادة لازمة للمسألة الأولى، وليست مسألة
مستقلة تكون أصلاً حتى نقول مثلاً: الأصل الأول: عبادة الله، والأصل
الثاني: عدم الشرك، والأصل الثالث: عدم موالاة الكفار.

نقول: هذه المسائل الثلاث كلها تزول إلى شيء واحد وهو عبادة الله
وحده، وأن يعبد وحده، ولا توجد عبادة الله إلا بترك الشرك، ولا يمكن
أن تكون العبادة عبادة صحيحة إلا بمعاداة أعداء الله وموالات أولياء الله
كما قال الله جل وعلا: ﴿لِيُؤْمِرُكُمْ بِاللَّحْمِ الْخَالِصَةِ مِنَ الْمُشْرِكِ وَيَنْهَى
كُمُ الْمُشْرِكِ وَمَنْ فَعَلَهُ مِنْكُمْ فَإِنَّكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ تَحْبِبُونَ لِلشُّرِكِ مَا تُحِبُّونَ لِقَوْمِكُمْ
عَنِ الدُّنْيَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَحْبِهِمْ أَلْتَفَتُوا﴾ (آل عمران: ٦٦). هل بقي في هذا للخلق شيء؟

الآية ما تركت شيئاً أبداً للخلق، وأصبح الأمر كله بيد الله جل وعلا،
فإن أعطى أحد من المخلوق شيئاً فهو منة من الله وفضل، وسوف يُترج منه
ويعطى غيره ما يستقر عنده والمال الذي يكتسبه الإنسان بكدّه وكده
وعمله فضل من الله ونعمة؛ لأن الله قوّاه وسر له الأسباب ثم بعد ذلك
سوف يتركة للوارث وربما كله من يستعين به على معصية الله ولا يحمده
جامعه له والمقصود أنه يسلب ما أعطى؛ لأن الأمر كله لله ويرجع إلى الله
جل وعلا.

ثم قال بعد ذلك: ﴿لَا يَجُودُ الْمُشْرِكُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَتَّبِعْ
أَوْلِيَاءَهُمْ فَيَسْئَلْ مِنْهُمْ مَبْرَئِينَ مِمَّا كَفَرُوا فَقَدْ أُوذِيَ بِلَا إِذْنِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ لِيُجْزَى
الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (آل عمران: ٦٨). فدلّت الآية على أن هذا

من تمام عبادة الله ومن لوازمها، لازم عبادة الله ألا يتخذ العابد الكافر ولياً له، والموالاة معناها المحبة والنصح، ابتداء النصيحة والمواقفة ويكون الإنسان يفتي معه، أما إذا جاءت المناصرة، النصرة، فهذا يسمى تولي، وهذا هو الذي قال فيه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ يَنْكُرْ لِرَيْبِهِ﴾ (المائدة: ٥١). يعني فهو كافر مثلهم، والتولي هو الذي تكون فيه المناصرة بأن يتناصرون إما بالمال أو بالسلاح أو بالنفس وهذه كفر بالله جل وعلا، إذا كان الفاعل لذلك مسلماً فقد ارتد عن الإسلام - نسأل الله العافية -؛ لقول الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ يَنْكُرْ لِرَيْبِهِ﴾ (المائدة: ٥١).

وقوله: «ولو كان أقرب قريب» يعني لو كان هذا الذي يتوله وهو كافر ابنة أو أبوه، هذا هو أقرب القريب الابن والأب، لو كان أبوه أو ابنة يتوله مع كفره فإنه يكون محاداً لله ورسوله ومفتقراً عنه الإيمان، ليس بمؤمن.



وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة: ١٢٢).

الشرح:

ومعنى قوله: ﴿لَا يَجِدُ﴾ (المجادلة: ١٢٢) يعني لا يوجد أي لا يوجد من يؤمن بالله ويواد المشركين ومن حاد الله ورسوله، يعني أن الإيمان لا يجتمع في قلب إنسان مع موالاة الكفار.



﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَوَدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ

أَبْنَاؤَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ١٢٢).

ومعنى قوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَوَدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ

الشرح:

قوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [المجادلة: ٢٢] إشارة أنهم لا نصيب لهم في اليوم الآخر؛ لأنهم لم يحدوا شيئاً له، وقد فقد الاستعداد له بكونهم والوا الكفار، ولا بد أن يكون في ذلك معادلة للمؤمنين؛ لأن موالاته الكفار تقتضي معادلة المؤمنين، فتعكس القضية تماماً، وهذه هي المعادلة: معادلة الله هي أن يكون الله في حد والمعاد له في حد، وحقيقة المعادلة أن الله يأمر بهذا وينهى عن هذا، والمعاد يفعل المتهي عنه ويترك المأمور به، أي أنه يكون غير موافق له جل وعلا فيما يأمر به ولا فيما ينهى عنه، فهذا يكون معاداً لله، وإذا أظهر ذلك وجب على المؤمنين معادته، ولو كان أقرب قريب، ولو كان أباه أو أمه، بدليل الآية هذه:

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا آباءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

[المجادلة: ٢٢]. كلمة ﴿أَوْ﴾ هنا للتشويح، ويده بالآباء للقراب ثم الأدنى، وهؤلاء هم أقرب شيء للإنسان، وقد يكون الأب يحب الابن أكثر محبة من أبيه ومع ذلك جعل هذا مع هذا لأجل أن يتبين أنه لا يحصل الإيمان إلا بالتبزي من الكافر وإن كان أباً للإنسان أو ابنه وأنه لا عذر له في تولي من كان كافراً لكونه من أقربائه، أما الأخوان والعشيرة فهم أبعد من ذلك ومع ذلك نص عليهم ليسن أن الأمر شديد في هذا.



﴿أَوْلِيَّكَ سَعَىٰ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

﴿أَوْلِيَّكَ﴾ [المجادلة: ٢٢] هذه إشارة إلى الصحابة الذين حصل منهم

في بدر بخلاف ما ذكر هنا، منهم من قتل أباه وقريبه؛ لأنه كان كافراً، فأشير لهؤلاء المؤمنين الذين قتلوا أقربائهم يوم بدر؛ لأنهم على الكفر، وهذا من أعظم المعاداة كونه يقتله إمعاناً في معاداته وكذلك اتباعاً لطاعة الله جل وعلا ومرضاته.

﴿سَكَّنَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ (المائدة: ٢٢) يعني الصحابة الذين قتلوا أقربائهم.



﴿وَأَنزَلَهُمْ بِرُوحٍ نَّيِّبَةٍ﴾ (المائدة: ٢٢).

الشرح:

الروح هنا أكثر من كونه النصر، ليس النصر فقط بل الروح الذي يكون من الله أوله الإيمان الذي يثبت في القلب ولا يتزعزع، ويقدم على قتل أبيه وابنه وأخيه إذا كان كافراً طاعةً لله جل وعلا، هذا الذي تحلى به الصحابة ولهذا الإشارة إليهم في هذا، وليست في هذه الفصّة فقط بل في جميع أوقانهم وحالاتهم كانت هذه صفتهم، في بعض المغازي كان مع الرسول ﷺ متعلقون منهم عبدالله بن أبي بن سلول في غزوة المريسيع، فنزلوا في مكان كان فيه ماء قليل فذهب غلمان من الصحابة من المهاجرين ومن الأنصار ليستقوا، فتراحموا على الماء، فقال المهاجرين: يا للمهاجرين، وقال ذلك: يا للأنصار، فسمع ذلك عبدالله بن أبي فقال: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كقول القائل: سمن كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل، ويقصد بالأعرض نفسه

وقبله، ويقصد الأذل رسول الله ﷺ^(١). **سَيَبِيحُ يَدَاكَ لِمَا كُنْتَ تَعْبُدُ**
 وحاصل بقول لأصحابه: ألم أقل لكم لا تنفقوا عليهم حتى يتغضوا
 ويرجعوا فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ أمر بالرحيل وكانت عادته هكذا،
 إذا حصل شجار أو نزاع لا يستمر حتى لا يتماذى هذا الشيء، هذا من
 العلاج الذي كان يصنعه ﷺ ويفعله، لا يريد أن تنتشر الفتن، يريد أن يقلل
 الفساد مهما كان وبأي وسيلة وطريقة، وبعد ذلك نزل القرآن، وكان ابنه
 اسمه عبدالله وهو من خيار الصحابة وأفاضلهم، فسمع أن الرسول ﷺ
 سيقتل عبدالله بن أبي، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، هل تقتل
 أبي؟ قال: لا، ومن قال فأك؟ قال: إذا كنت تريد أن تقتله فمروني فأقتله،
 إني أخشى أن يقتله رجل من المسلمين فلا أصبر وأخشى أن أقتله فأكون
 من أهل النار، قال: لا، ولكن نحسن صحبته^(٢)، فلما قربوا إلى المدينة
 ذهب الابن عبدالله واختلط سيفه ووقف لأبيه وقال: والله ما تدخلها حتى
 تشهد على نفسك أنك أنت الأذل وأن رسول الله ﷺ هو الأعرز، فشهد لما
 رأى السيف.

المقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
 الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ قَدِيمَةٍ ﴾ [الجمادى: ٢٢] بإخلاص وصدق وثبات على
 الحق ومحبة للحق وبغضاً وكراهة للباطل وثباتاً على ذلك، وهذا هو
 الروح الذي يكون من الله جل وعلا للعبد فهم المقصودون في هذه الآية:

(١) البخاري (٣٣٤٧)، كتاب العقاب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، مسلم (٤٦٨٢) كتاب السير
 والصلة والآداب، باب نصر الأخ طالباً أو مظلوماً، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة.

﴿أُولَئِكَ حُكِّبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا﴾ [المجادلة: ٢٢].
ثم ذكر ما يجزئهم به في الآخرة.



﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

الجنة هي البستان الذي نطقت أرضه بالأشجار والزرع وفيه الأنهار؛ لأنه من الاجتنان وهو الستر، سترت أرضها بالأشجار والزرع، وكل أرض سترت بالزرع والشجر تسمى جنة، وإذا كانت الأنهار تجري من تحتها فهذا زيادة وصف وخير، والجنة التي وعدنا الله جل وعلا المؤمنين لا أحد يعرف عنها شيئاً مشاهدة إلا ما كان لبعض ملائكة الله تعالى والملي عليه السلام فقط أطلعه الله تعالى على بعض ذلك، وإنما يعرف عنها بالخبر، والخبر ليس كالمعاينة؛ لأنه ليس عندنا شيء من جنس الجنة التي وعدنا المؤمنون حتى يمكن أن يعرفوها أو يعرفوا شيئاً من صفاتها معرفة حقيقية.

وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس عندكم في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»^(١)، يعني العنب والتخل والحمور والأشجار والأنهار واللبن والخمر مجرد أسماء، أما الحقائق فلا، لا في الحقائق ولا

(١) التفسير ابن كثير، سورة البقرة، آية (٦٥)، وقال المنطوي في «الترغيب والترهيب» (١/١٢٣)، رواه البيهقي مؤلفاً مستديراً.

في العنظر ولا في المشموم ولا في غير ذلك، ولهذا أهل الجنة ما عندهم فضلات أبداً لا يول ولا غائط، الذي يأكلونه يذهب رشحاً، لأنه ليس فيه فضلات، وذلك لطيبه وحسنه، ليس فيه شيء يكون فاسداً أبداً إنما هو غذاء كامل، والله جل وعلا يقول في آية ذكرها جزاء لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴿فَلَا تَقْلُمُ نَفْسٌ فَاخْفَيْنَ كُفْمَ تِنٍ قُرْءٍ أَتَيْنَ﴾ (السجدة: ١٧). فهذا ﴿نَفْسٌ﴾ (السجدة: ١٧) يدخل فيها الملائكة والأنبياء وغيرهم، لا أحد يعلم ذلك إنما هي مخبأة لهم، ولما قام الرسول ﷺ يصلي صلاة الكسوف في مسجده ﷺ مثلت له الجنة والنار في نفس المسجد، فصار يتقدم فتقدموا خلفه؛ لأنه ما كان بجوار الحائط كان في وسط المسجد لفلة المصلين، فتقدم فتقدمت الصفوف خلفه، ثم تأخر وتقهقر وصارت الصفوف تتقهقر لا يعرفون ما السبب، ولما قضى الصلاة خطب خطبة معروفة وقال: «لقد عرضت علي الجنة والنار» أو قال: «لقد مثلت لي دون هذا الحائط فرأيت في النار عمرو بن لحي الخزاعي يجر قضيباً؛ لأنه أول من سب السواب وحسن الحامي وغير دين إبراهيم، ورأيت فيها امرأة في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، رأيتها تخمش وجهها وهي في النار، وعرضت الجنة فلم أرى منظرأ كالأيوم قط، وقد هممت أن أتناول منها قطعاً لما رأيتوني تقدمت، ثم بدا لي ألا أفعل، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا - والقطف عنقود عنب، ولو أخذته لبقث الأمة تأكل منه وهو باقي لا ينتهي؛ لأن الذي في الجنة لا يقنى - وحينما رأيتوني

تظهرت خشيت منها حتى قلت: يا ربّي وأنا فيهم، خشيت أن تأتي علينا» (١).
فالمقصود بقول الرسول ﷺ: «لو أخذته لأكلتم منه ما بليت الدنيا»،
معنى ذلك أن هذا خلاف ما هو معهود.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (المجادلة: ١٣)، جاء في الحديث أن أنهار
الجنة تجري بلا أخدود (٢). رواه الإمام أحمد، والأخدود الجوانب التي
توضع لمنع الماء لتلا يتشر، إما بعمله الماء أو تعمل له.

﴿حَسْبُورَيْنِ فِيهَا﴾ (المجادلة: ١٣).

الشرح:

والخلود هو الدوام الذي لا ينتهي ولا يتقطع، مع هذا النعيم خالدين
فيها، فزادت تمام السعادة تمام الحياة، يعني أمنوا الموت وأمنوا الألم
والعذاب وتعموا، ويعدّه شيء أفضل من هذا وهو قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المجادلة: ١٣).

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المجادلة: ١٣).

الشرح:

هذا أعلى ما في الجنة كون الله رضي عنهم ورضوا عنه، أما رضاهم
عنه فليس عجباً؛ لأن الله هو ذو الفضل والإحسان بداءً وختم به، ففضله

(١) البخاري (٤٦٦٤) كتاب التفسير من سورة المجادلة، باب ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ تَجْرِيَةٍ وَلَا مَكْرَهٍ﴾

(المجادلة: ١٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٩٠٤) كتاب الكسوف، باب

ذكر عذاب القبر في الصلاة، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن أبي شيبة في «المصنف» وابن أبي حاتم في «التفسير».

على العبد لا يحصل، ففضل بالإيمان بأن جعل العبد مؤمناً ثم تفضل بجزائه الجنة، ومعروف في مذهب أهل السنة - وهو الحق الذي دل عليه القرآن - أن التمتع في الجنة ليس بالأكل والشرب والمنكح والمنكحات البدنية التي تؤكل وتحمس، بل أعظمها اللذائذ بالله جل وعلا - النظر إليه - هذا هو أعظم نعيم، ولهذا جاء قوله جل وعلا: ﴿يَلْبَسُونَ أَهْسَبًا لَظْهَىٰ وَرِيَاءً﴾ (نور: ٢٦)، والزيادة تكون على الحسن أفضل منها، والزيادة هي النظر إلى وجه الله جل وعلا^(١).

ويقول جل وعلا في أعدائه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرُونَ﴾ (الطغتن: ١١). يقول العلماء: أن الحجاب أشد من العذاب، فهو يقابل ما يحصل للمؤمنين من نظرهم إلى ربهم جل وعلا، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً عظيماً، منهم من ينظر إلى ربه في أول النهار وآخره لأن أهل الجنة ما عندهم ليل ونهار ولا شمس، ولكن مع ذلك يعرفون الليل والنهار، ولهذا جاء أن منهم من ينظر إلى ربه جل وعلا بكرة وعشياً وهذا هو أعلى أهل الجنة، ومنهم من ينظر إليه في كل جمعة مرة.



﴿أَوَلَيْسَ لَكَ عِزٌّ أَتَىٰ﴾ (المجادل: ٢٢).

الشرح:

يعني أصحابه الذين ذكر أنه كتب في قلوبهم الإيمان وأبدعهم بروح

(١) صحيح ورواه الترمذي وابن ماجه وأحمد بنحوه عن صهيب رضي الله عنه وهو مخرج في مقال الجنة. إعرابي.

منه، وكل من عمل عملهم فإنه يكون له هذا الوعد الكريم إلى يوم القيامة.

﴿الْأَيْنِ جَزَيْتُمْ أَتَوْهُمْ الْمُتَّقُونَ﴾ (المجادلة: ٦٢).

الشرح:

ولا يكون من حزب الله إلا إذا انحزب وتميز عن حزب الشيطان، أما إذا كانت الأمور متداخلة فإنه يكون فساد في الأرض عظيم كما قال جل وعلا لما ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض قال: ﴿إِلَّا تَتَّقُوا اللَّهَ يَكُنْ فِي أَرْضِنَا وَقَسَاءً كَثِيرًا﴾ (الأنفال: ٧٣). يعني لا يقع هذا منكم وذلك يعني معاداة أعداء الله وموالاة أولياء الله تكن الفتنة والفساد الكبير العظيم إذا لم يحصل ذلك.

اعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ يُطَاعُ عِندَهُ،

الشرح:

الظاهر أن هذا ليس من كلام الشيخ لأنه غير مرتب، ويجوز أن يكون من جمع بعض تلامذته عندما كان يتكلم ويقرر المسألة، وهو دعاء للمخاطب الذي أمر بالعلم، وهي العادة إذا كانت المسألة تحتاج إلى فكر ونظر، فيقال: اعلم، حتى يتنبه السامع، ويعلم أن هذا يحتاج تركيز اللحن.

أَنَّ الْحَقِيقَةَ بِلَهِّ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَخَدُّهُ،

الشرح:

الحقيقية مأخوذة من الحظف وهو العدول والميل قصداً عن كل دين

إلى دين الله الذي أمر الله جل وعلا به وهو دين الرسل كلهم كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الْبِرَّ لِعِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١١٩]، ومقصوده أن الإخلاص الذي هو خلوص العبادة لله هو الذي أمرنا وكلفنا به.



مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ.

الشرح:

والآيات التي جاءت في هذا كثيرة كما قال تعالى: ﴿فَتَزَيَّلَ الْكَيْفَ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا لَنَرَا فِيكَ الصِّكْرَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدَ اللَّهَ تَحِيَّةً لَهُ الْيَوْمَ ۝ الْآيَةُ الْيَوْمَ لِلْحَائِلِ﴾ [الزمر: ١-٣]. يعني إذا لم يكن الدين خالصاً فليس لله، فإله الغنى الشركاء عن الشرك، إذا جعل في العبادة شيء لغيره تركها لذلك الغير؛ لأنه غني بحريم جل وعلا، فلا بد أن يكون الدين خالصاً.

ثم قال بعد هذا: ﴿قُلْ إِنْ أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ اللَّهُ تَحِيَّةً لَهُ الْيَوْمَ﴾ [الزمر: ١١]. ويقول جل وعلا: ﴿وَمَا أُرِيدُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ تَحِيَّةً لَهُ الْيَوْمَ حَقَّةً وَيُبَيِّنُوا السَّلْوةَ وَيَقْرَأُوا الزُّكُوةَ﴾ [البقرة: ١١٥]، فالإخلاص هو دين الله الذي لا يقبل إلا هو، وإذا لم يكن خالصاً فلا يخلو، إما أن يكون مردوداً أصلاً وإما أن يكون ناقصاً إذا شابه شيء من الرياء اليسير الذي لا يظلمه، ولكن الأدلة تدل على أن العمل إذا شابهت شائبة الرياء أنه مردود وأنه لا يقبل.

والإخلاص يكون بصدق التوبة وعزيمة القلب في العمل أن يكون لله وحده ولا يكون فيه شيء لغير الله جل وعلا، فيصبح الإنسان من ناحية في سره وعلانيته سواء، فلا يكون مع الناس يؤدي الأعمال بنشاط وإذا غاب

عنهم كسل، هذا لا يكون إخلاصاً، الإخلاص أن يكون في مغيه مثله في محضه، فمن ناحية العبادة لا يتأثر بالناس ولا يؤثرون عليه ولا يبالي بهم؛ لأنه يعلم يقيناً أنهم لا يتبعونه ولا يضرونه وأنه لا يعمل لهم بل يعمل لربه جل وعلا، ولو مدح وأثنى عليه ما زاده ذلك شيئاً؛ لأنه يعرف نفسه أكثر من غيره، ولو قدح فيه ما تأثر أيضاً بل ربما استأنس للقدح فيه؛ لأنه في الواقع مكتسب عملاً ليس من نفسه، وليس مقصده الظهور أمام الناس والترفع على عباد الله، مقصده أن يؤدي عملاً لله جل وعلا يكون راضياً عنه به.

ومع ذلك لا يجوز أن يزدي عباد الله ولا أن يرفع عليهم ولا أن يحتقرهم أو ينتقصهم بل يؤدي حق ربه وحق عباد الله عليه؛ لأن المؤمن له على أخيه حقوق، فالمقصود أن الإخلاص الذي قال أنه ملة إبراهيم هو دين نبينا محمد ﷺ الذي جاء به، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

• • •
وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛

الشرح:

يعني لهادء الملة الحنيفية.

• • •
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الحجرات: ١٧).

الشرح:

ومعنى هذا أنه خلقهم لتحصل منهم العبادة، يعني أنه أوجدهم

وأظهرهم من العدم إلى الوجود على هذه الصفة وأعطاهم ما يلزم لخلقهم وحياتهم وطلب أن تكون منهم العباد، ووجه الأمر هنا للجن والإنس؛ لأنهم المكلفون العفلاء، وقدم الجن على الإنس لقدمهم في الوجود، والله أعلم.

وقيل: لأن الجن غير مرتين فالنصي ذلك الإيمان بهم من الإنس حتى لا يُظن أنهم غير مكلفون، فهم مكلفين ومجازين كجزء الإنس، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون ومنهم الشياطين ومنهم البررة، وهم ذرية إبليس.

المقصود أن هذه الآية أشكلت على كثير من المتكلمين إشكالاً عظيماً لم يتخلصوا منه حتى صار هذا الإشكال مربكاً مع أنها واضحة وظاهرة، ولكن إذا أراد الله جل وعلا أن يعصي قلب إنسان فإنه لا يملك له من دون الله شيء، ووجه الإشكال الذي استشكلوه أنهم يقولون في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) أنه أخير بخلقهم للعبادة والواقع أن أكثرهم لا يعبد فأين صدق الخير؟ هل خير الله يتخلف؟ فبدأ الإشكال من هنا.

والجواب عن هذا أنه ليس المقصود الإخبار بعبادتهم كما أخير بخلقهم وإنما المقصود أنه خلقهم وحياتهم للعبادة وأمرهم أن يعبدوه وأن تحصل العبادة منهم حتى يمكن أن يجزوا، أما لو كانوا مرغبين على العبادة كإرغامهم على الخلق فلا فائدة في جزائهم، ولهذا يقول علماء أهل السنة: أن هذه تدل على الحكمة من الخلق، أي أن الله خلق خلقه لحكمة وهي أمرهم بالعبادة، فيكون نظير هذه الآية قوله جل وعلا:

﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِنسَانِ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (البقرة: ٢١٦). يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في تفسيرها: يعني لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يكلف بعبادة الله جل وعلا، فهو خلق للأمر والنهي، والعبادة هي الأمر والنهي، وإذا جاء ذكر العبادة فالمقصود بها التوحيد لأنه لا يقبل عبادة إلا إذا كانت خالصة لله جل وعلا.

وَمَعْنَى (يَعْبُدُونَ): يُؤْتُونَ،

الشرح:

هنا يريد أن يبين أن العبادة هي التوحيد، وذلك يعني أن العبادة التي أمر الله جل وعلا بها شرعاً أن تكون خالصةً لله ليس فيها شيء لغيره، فإذا وقعت العبادة لله ومقصود آخر من مقاصد الدنيا ومرادات النفس فلا تكون عبادة شرعية وإن كانت عبادة في اللغة، والتوحيد هو أن يكون العمل واحداً لواحد، موحداً لله جل وعلا ليس فيه شراكة لغيره وهو الإخلاص الذي أمر الله جل وعلا به.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدَ،

الشرح:

يعني أنه أكد المأمورات وأعظمها، وضده كذلك أعظم ما نهى عنه وهو الشرك، ولا يمكن أن يوجد توحيد إلا باجتناب الشرك وهو أمر لازم، ولهذا يقول الله جل وعلا في الآية التي في سورة البقرة:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَدْ فَتَنَ الْإِنسَانُ لَقَدْ فَتَنَ الْفَرِّقَ فَمَنْ تَكْفُرًا بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنُ

بِالْحَقِّ فَكَسَدَ اسْتَمْسَكَ بِالتَّوَكُّلِ الْوَتُونَ ﴿ (المراد: ٢٥٦). والله جل وعلا لا يقبل عملاً بدون التوحيد، فهو الأصل والأساس وهو دعوة الرسل، كل رسول يأتي إلى قومه بأمرهم بالإخلاص بأن يعبدوا الله وحده، كل نبي يقول لقومه: ﴿اتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿ (الامر: ٥٩). فلا يقبل العمل بدونه، ولهذا لما بعث الرسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية: «إلى أن يعبدوا الله»، وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله». ثم قال: «فإن هم أجابوك على ذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة»^(١)، فتبين بهذا أنه لا يصح أي عمل إلا من الموحّد الذي يعبد الله وحده، وبهذا يتبين أن التوحيد هو أعظم الأمور وهو الأساس الذي تبنى عليه الأعمال كلها، فإن صح صحت العبادة كلها وإن فسدت فالأعمال كلها مردودة.

ومعنى الإله هو المألوه الذي تأله القلوب حباً وخوفاً وإناجاً، يعني تتعلق به محبة وعبادة وخشية، وهذا هو معنى لا إله إلا الله: أن يثبت العبد تأله لله وحده وينفي العبادة عن كل ما سواه، ولا يد من هذا الإثبات والنفي.



(١) «البخاري» (٧٣٧٢) كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أنه أتته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، «ومسلم» (٣١١) كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام والصلاة والصدقة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ذكره الألباني في «إرواء الغليل».

وَهُوَ: **إِقْرَأْ اللهُ بِالْعِبَادَةِ.**

الشرح:

إفراده بالعبادة يعني أن تكون العبادة خالصة له ليس فيها اشتراك لغيره بأن يكون فرداً واحداً، والتوحيد أخذ من هذا، أن يوحد العمل ويوحد من له العمل كما يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

فلو احدى كن واحداً في واحدٍ أعني طريق الحق والإيمان

قوله: «كن واحداً» يعني عبداً «الواحد» يعني: له جل وعلا، لا تكن موزع العبودية بين المخلوق والمخلوق، بل كن عبداً لمن تَعَبَّدَكَ الذي هو الله. وقوله: «في واحد» يعني في طريق واحد الذي هو سنة الرسول ﷺ وهدية الذي جاء به، ولهذا قال: «أعني طريق الحق والإيمان»، قوله: «أعني» يعود على واحد، والمقصود أن هذا أمر لا يد منه وهو دعوة الرسول ﷺ ودعوة إخوانه من الرسل قبله، وقد وُضِّحَ الرسول ﷺ غاية الإيضاح ولم يترك شيئاً فيه مشكلاً أو ملتبساً صلوات الله وسلامه عليه، فلا عذر لمن جنح عن هذا الطريق أو حاد عنه وذلك لبيانه ووضوحه وإقامة الحجج، ومن جانب ذلك فهو من تقصيره، فيجب على العبد أن يطلب ذلك ويجتهد فيه.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشَّرْكَ

الشرح:

وقوله: «أعظم ما أمر الله به وأعظم ما نهى عنه»؛ ليبين أنه يجب على

العبد أن يهتم بذلك حتى لا يكون ضالاً أو ملتبساً عليه الأمر، ومعلوم أن رأس مال الإنسان حياته الدنيا، فإذا اعتدى بها تحصل السعادة وإذا ضل فيها ثم حضره الموت وعنده من المخالقات أو من الشرك ما عنده وتبين له ذلك وتدم فلا يتمكن من العودة ولا يتمكن من الاستدراك فيكون خاسراً نفسه وأهله كما أخبر الله جل وعلا: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُرِّيَّتًا ضَالَّةً خاسراً أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الَّذِي كَانُوا كَانُوا فِيهِ﴾ (الزمر: ١٥). فيخسرون أهلهم الذين أعدهم الله جل وعلا له في الجنة وليس أهلهم الذين هم أولاده وزوجته وأبوه وأمه فهؤلاء كل واحد منهم له عمل وكل واحد منهم يفر من الآخر كما قال الله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُعْرَأُ الْكُرْآنُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيُؤْتُونَ آلِهِمْ ﴿٣٥﴾ وَمَنْجِيحًا وَيُنَادِي السَّامِعِينَ بِأَنْفُسِهِمْ يَوْمَئِذٍ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (مريم: ٣٤-٣٥). يعني مهتم بنفسه ويعمله خوفاً من أن يهلك، وإنما أهله الذين يخسرهم أهله الذين في الجنة، لأن كل واحد من الناس له مسكن في الجنة ومسكن في النار، فإذا كان من أهل النار ورثه أهل الجنة وإن كان من أهل الجنة يعطى مسكنه الذي في النار لكافر من الكفار ويقال: هذا فكافك من النار^(١).

والمقصود أنه يجب على العبد أن يهتم بأعظم ما أمر الله به فيعمل به، يعلم أن أول ما يؤمر به الإنسان هو العلم ثم العمل يتبعه، كذلك يهتم بأعظم ما نهى الله عنه وهو الشرك ويعرف بما جاء الرسول ﷺ، ولهذا

(١) مسلم (١٩٦٩) كتاب التوبة، باب قول توبة القاتل وإن كفر قطعه، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

كثير من المسلمين ممن يتسمى بالإسلام ومن يصوم ويصلي في المساجد مع الناس يقع في الشرك الأعظم وهو لا يدري ويظن أنه توحيد وعبادة، فيذهب لغير الولي ويدعوه متضرعاً وخاضعاً له وذلك بأن يهب له من أمور الدنيا أو يتقدم بين يدي الله جل وعلا شافعاً له وهو ميت، وهذا هو دين المشركين تماماً، وكثير من الناس يظن هذا من الأعمال الصالحة وأنه توسل بالصالحين وأنه من أفضل الأعمال، هكذا يقولون من أنه شرك أكبر.

والمقصود أنه يجب على الإنسان أن يتعرف على الشرك؛ لأنه أعظم ما نهى الله عنه وهو أنواع كثيرة وكلها تعود إلى شيء واحد وهو أن تكون العبادة أو شيء منها لغير الله جل وعلا.



وَهُوَ: دَعْوَةٌ غَيْرُهُ تَعُدُّ،

الشرح:

يعني الشرك، سواء في الدعاء أو العبادة وسيأتي أن الدعاء ينقسم إلى قسمين.



وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، كِتَابًا﴾ (سج: ١٣٦).

الشرح:

جاء عن ابن عباس أنه قال: «كل أمر في القرآن ﴿وَأَعْبُدُوا﴾ فإن

معناه التوحيد أي إفراد الله بالعبادة؛ لأنهم يعلمون أن الله لا يبدل من عباده إلا التوحيد والإخلاص لله جل وعلا، وهذا بين واضح في القرآن، وقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (النساء: ٣٦)، وبمعناها قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦)، تأكيداً بأن العبادة هي فعل ما أمر الله به مع عدم الشرك، فهو كقولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فقولك: لا شريك له تأكيد له لا إله إلا الله، ويؤكد للاهتمام به، وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦)، نكرة في سياق النهي، فتكون عامة في كل مخلوق سواء كان نبي أو ملك أو ولي أو غير ذلك، وهذا يدل على أن العبادة يجب أن تكون لله وحده وليس لأحد من الخلق فيها شيء.



فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الْأَصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ تَعْرِفَتُهَا؟

الشرح:

الإنسان اسم جنس، يعني على كل ذكر وأنثى أن يعرفها، وسوف يسأل كل فرد من الناس عنها في قبره حال دفنه، فإنيته ملكان وسألانه عن هذه الأصول الثلاثة كما بين ذلك رسول الله ﷺ فيقولان له: من ربك؟ ومعناها من الذي خلقك وأوجب عليك العبادة وتعبدك بذلك؟ وليس معناها من ربك الذي ربك بالخلق والتعم وما يلزم للحياة والتربية فقط، ولهذا يأتي الرب بمعنى المألوف والمعبود.

وكذلك يقولان له: وما دينك الذي تدب به في حياتك؟ ومن الذي جاهد بالدين؟ فإن كان مؤمناً موقناً أجاب إجابة بهدوء وبلا خوف ولا

تلتعلم، فيقول: ربي الله ودينه الإسلام ونبي محمد ﷺ.
وفي رواية يقولان له: وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ يعني هل
عرفته أم لم تعرفه؟ المقصود أن هذه الأصول يتعين على كل فرد أن
يعلمها علماً يقينياً بلا شك ولا تردد ويموت عليها موقناً لأنه سوف يسأل
عنها، وإذا تعلمها الإنسان بلا عمل فلا تنفعه، وإذا مثل عنها سوف يتلتم
ويتردد ولا يجيب؛ لأن الجواب يكون عن الشيء الذي عمل وتحلى به
وثبت في مستقر قلبه ويقينه، أما إذا لم يثبت فيخشى عليه ألا يجيب، وأن
يقول مثلما يقول الشاك إذا سأله الملكان قال لهما: هاه هاه.. لا أدري،
سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته^(١)، يعني أنه مقلد، يرى الناس يعملون
شيئاً فيعمل معهم ويقولون شيئاً فيقول معهم.
ومن هنا يتعين على الإنسان أن يتعلم هذه الأصول تلعماً يكون مشرعاً
بالعمل متيقناً به غير مقلد لمن يراهم ويعمل معهم.



شرح الأصول الثلاثة

(١) صحيح، نظر «الحكام الجاثرة» (١٥٦-١٥٩)، أم أبياني.
قال شاكرو: رواه أحمد في «المستدرج» (ج ٢ من ٢٨٧-٢٨٨-٢٩٥-٢٩٦) طبعة المجلس
مطولاً، ونقله ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١٧٤-١٧٥) عن المسند، ورواه أبو داود: (١٧٥٢-
١٧٥٤)، والحاكم في «المستدرج» (٦/ ٣٧-٣٩)، بأسانيد كلها من رواية الأعمش عن
النهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على
شرط الشيخين، فقد احتجنا جميعاً بالنهال بن عمرو، وزاذان أبي عمر الكندي، ورافقه
الدعي، وقد أطال الإمام ابن القيم القول في تصحيحه والبرء على من أحله في «تهذيب
السنن» (١٥٨٦) (ج ٧ من ١٢٩-١٤٦)، أم.

لَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَرَبِّتَهُ، وَتَبِيَّتَهُ مَحْتَسِبًا ۝

الشرح:

هذه الأصول الثلاثة، معرفة العبد ربه ومعرفة الدين الذي تكلف به ومعرفة النبي الذي جاء بالدين، لأن الدين يجب أن يكون من عند الله جل وعلا، ولا يكون بالأوضاع ولا بالعقل ولا بالاجتماع على شيء وسنة من أنظمة وقوانين وغيرها، لأن الله هو الرب والرب هو الذي يرب الشيء ويملكه ويتصرف فيه، فالأمر له والنهي له، وأمره ونهيه هو الدين، ولا يأخذ عن الله إلا الرسول ۝، فهو الواسطة بيننا وبين ربنا في تبليغ أوامر الله جل وعلا ونواهي، وذلك بالوحي إليه بالأمر والنهي.



«الأصل الأول»

تَعْرِفَةُ الرَّبِّ

فَبِأَيِّ قَبِيلٍ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

قُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّنِي.

الشرح:

رباني يعني أوجدني وأنعم عليّ بالتربية والغذاء وإزالة المضار التي تحول بين الإنسان ونموه وحياته وأنعم عليّ ظاهراً وباطناً، وإذا كان هو الذي خلق وهو الذي رزق وهو الذي صرف المضرات وجلب المنافع وحده لا شريك له في ذلك، فإنه يجب أن يعبد وحده، وهذا هو المقصود، فمعنى رباني أي خلقتني وأخلق عليّ من النعم التي بها أتربى في بدني وفي روحي، وتربية الروح بالوحي الذي يأتي به الرسول ﷺ وأما البدن فإنها بالمأكل والمشروب وكل ذلك من الله جل وعلا.



وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِتَعْوِيهِ،

الشرح:

يعني أنه خلق الخلق كلهم وأنعم عليهم بالشيء الذي يقي عليهم حياتهم لا شريك لك له في ذلك، والعالمين هم كل الخلق، فمعنى هذا أن الوجود كله شيطان فقط: مخلوق وخالق، فالخالق هو الله وحده لا شريك له، وما سواه مخلوق، وهذا المخلوق الله يتصرف به، أوجدته بعد أن لم يكن شيئاً كما قال جل وعلا: ﴿هَلْ أَدْرَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: ١٦).

ولا شك فقد جاءت عليه دعور طويلة جداً وهو ليس شيء ثم خلقه الله جل وعلا وأنعم عليه لعبادته، فكل مخلوق من المخلوقين الذين هم الجن والإنس والملائكة متعبدون بأوامر ونواهي معينة، أما الحيوانات التي خلقت ليني آدم لمتافعهم فهي أيضاً مربوبة ومتعبدة عبادة تليق بها ويدخل فيها الشجر والنبات كله، أو الجمادات وكل شيء يسبح بحمد الله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَنْتَهِنِ عَنْ تَعْْبَادَتِهِمْ وَيُتَّقِ اللَّهَ يَجْزِئْهُ مِمَّا كَسَبَ مِنَ الشَّرِّ أَشْفَؤُا وَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ (الاسراء: ١١٤). والصواب من أقوال العلماء أنه تسبح حقيقي بلسان المقال وليس بلسان الحال كما يقوله بعض من يقوله، ولهذا لما ذكر آية السجود أخبر أن كل شيء يسجد لله ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ سَاجِدٌ لِّرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾ (المعج: ١٥)، يعني لا يسجد لله، أما غيرهم فهم يسجدون لله.

وَهُوَ تَعْبُودِي

الشرح:

يعني ربي الذي خلقني ورباني بنعمه الظاهرة والباطنة منذ وضع الإنسان في رحم أمه نطفة، فتعم الله تنوالياً عليه، حفظه في قرار مكين وغذاء تغذية عجيبة في بطن أمه، لا يدخل لأمه به ولا لأبيه، ثم أخرجه من ذلك المكان الضيق إلى سعة الدنيا وليس عليه أي شيء، ثم فتح له باب الأرزاق وسفر له والديه، فأصبح والده ووالدته يسهران على مصلحته وعلى منافعه ويقدمان مصلحته على مصلحتيهما تسخيراً من الله له، وهي من النعم التي أنعم بها عليه، حتى في الحيوانات تجد السبح الضاري يعطف على ولده ويقاقل دونه أشد القتال ويسعى على منافعه وكذلك كل

الحيوانات حتى تبلغ وتستطيع أن تحصل على الرزق بنفسها، عند ذلك تتخلى عنه، فالمقصود أن الله جل وعلا خلق كل شيء وهذه لمصلحته وأعطاه خلقه الذي به تتم نعمته عليه، وبذلك وجب أن يُعبد وحده لا شريك له والعبادة هي طاعة أمره واجتناب نهيهِ مع الذل والخضوع والتعظيم له تعالى، وأمره ونهيهِ لا بد أن يكون بألفه رسول الله ﷺ.



كَيْسَ لِي مَعْبُودَةٌ سِوَاهُ؟

الشرح:

يعني أن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد، ولهذا نعى الله جل وعلا ودم المشركين الذين يعبدون ما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، فالذي لا يملك الضر ولا النفع عبادته ضلال، وكذلك بين أن المعبودات من دونه كثيرة، منها ما ليس له سمع ولا له بصر وليس له يد يبطش بها ولا رجل يمشي بها، ومن أضل ممن يعبد مخلوقاً مثله أو دونه، وأشد الضلال أن يعبد ميتاً مرهوناً بعمله في حفرته بأن يتجه إليه ويطلب منه أن ينجيهِ من النار وأن يهب له مغفرة الذنوب أو يهب له ولداً أو يهب له رزقاً أو ينصره على عدو أو ما أشبه ذلك كما هو شأن الذين ينصرفون عن عبادة الله جل وعلا إلى عبادة أصحاب القبور.



وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَسَنَةُ قَوْلُ تَابِتٍ الْقَلْبِيِّ﴾ (المعاني: ١٢).

الشرح:

يعني دليل أن الله هو الرب العربي المالك، و﴿الْحَسَنَةُ﴾ هو التناء

بالجميل الاختياري باللسان على النعم التي يُنعم بها، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلْإِسْتِغْرَاقِ، جَمِيعِ الْمُحَادِدِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا رَبُّ جَلِّ وَعَلَا خَالِصَةً لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَّ الْكَافِرِينَ﴾ يعني الذي رباهم وزيّهم، قريتهم خلقهم وأوجدتهم، ورباهم بالنعم ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ كل المخلوق عالم، فكل نوع من المخلوق عالم، فالإنسان عالم والجن عالم والملائكة عالم، والبهائم عوالم، والشجر وغيرها، فكل مخلوق عالم كما بين الله جل وعلا، فهو رب الكل الذي خلقهم وأنعم عليهم وتعيدهم. اهـ.

• • •

وَأَمَّا مَنْ سَوَّى اللهُ عَالَمَهُ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

الشرح:

يعني الله هو الخالق وغيره مخلوق مريبوب مقهور مسخر مدير وسوف يرجع كل واحد إلى ربه جل وعلا فيجازيه بعمله، إن كان مكلفاً فإما إثابة وإما عقاب، وإن كان غير مكلف فإنه يقتص من الحيوانات التي قد يعتدي بعضها على بعض، ثم يقال لها: كوني تراباً، وأما إن كان غير ذلك فهو خلق لبني آدم كما قال الله جل وعلا: ﴿وَسَخَّرْنَاكُمْ إِنِّي أَنْتَوْنِمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ حَيْثَمَا تَأْتُوا﴾ [الحج: ١٧].

• • •

فَأَنَا قَبِيلُ لَكَ: بِمَنْ عَرَفْتُ رَبِّيكَ؟

الشرح:

هذا معناه أنه يلزم على الإنسان أن يتعرف على ربه جل وعلا بالدليل، والدليل إما أن يكون من آيات الله، أو يكون بمخلوقاته، أو يكون

بالعقل الذي أعطاه الله جل وعلا الإنسان وهو يجمع هذا وهذا، وإما أن يكون بالفطرة التي فطر الخلق عليها، والله فطر خلقه على الإقرار به، فكل إنسان مريبوب وإذا وقع في شدة يفرغ إلى ربه يدعو، وذلك فطرة من الله جل وعلا، ولهذا احتج الله على الكفار المشركين بهذه الفطرة، فقال جل وعلا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ السور: ١١٢. وغالباً يقع الإنسان في الكرب والشدة فيحتاج إلى سؤال ربه ولا ينطق الإنسان أن يكون الله جل وعلا قد استجاب له؛ لأن مقتضى الربوبية أن يجيب دعائه وأن يقوم على مصالحه وهو من معاني الترية، فمعرفة الله جل وعلا تكون ظاهرة بآياته، وآياته تنقسم إلى قسمين: آيات كونية مخلوقة تشاهد وآيات قولية يتزلها على عباده وتتبع هذا آيات فعلية يفعلها إذا شاء، ومن ذلك ما يكون خارجاً عن المعهود الذي عهده الناس والذي يسمى معجزات والله سماء آيات مثل إحياء الموتى، ومعلوم أن الميت إذا مات لا يستطيع أحد من الأطباء أو غيرهم إرجاع الروح فيه وهو أمر يفر به العالم كله لكن الله يحيه وجعل ذلك آيات وأوجد ذلك بالنظر والمشاهدة حتى لا يرتاب الإنسان وقد ذكر الله جل وعلا إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع وهي:

الموضع الأول: قصة الذي قتل قرية قريه خزية ليرثه فأمر الله جل وعلا موسى عليه السلام أن يأمرهم أن يذهبوا بقره فيضربوا الميت بعضو منها، ففعلوا فقام حياً وقال: قلني فلان. قال جل وعلا: ﴿وَأَيُّ قَسَالٍ مُّؤْمِنِينَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بقرَةً قَالُوا لَنْ نَجِدَ نَاقِرَةً قَالِ أَمْوَةٌ بِأَمْرِهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُجْتَابِينَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَرَىٰ بَرَاءَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَأَمَّا مِنْ قُلُوبِنَا إِنَّهَا بقرَةٌ لَّأَعْرَضْنَا وَلَا

يَكْرَهُوا بَيْنَكَ ذَلِيلَةً فَالْفَلْسُوفُ مَا تُوْمَرُونَ ﴿١٧٠﴾ قَالُوا أَوَإِذَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْغَيْثَ لِيُنزِلَ
 مَا كُونُهَا قَالِ إِنَّهُ يَشْقَىٰ إِلَهُهَا بِسَفَرَةٍ سَفَرَةٌ مَّا يَفْعَلُ لَوْنُهَا كَسْرُ الشَّظِيرَةِ ﴿١٧١﴾
 قَالُوا أَوَإِذَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْغَيْثَ لِيُنزِلَ عَلَيْكَ وَإِن شَاءَ اللَّهُ لَهَيِّدُونَ ﴿١٧٢﴾
 قَالَ إِنَّهُ يَبْرُؤُ إِلَهُهَا بَعْرَةً أَلَا ذُلٌّ لِيُجِيرَ الْأَرْضَ وَلَا تَسْبِيحُ الْغُرُثُ مُسَلِّمَةٌ لَا سِبِيَةَ فِيهَا
 مَالُ الْوَالِدَيْنِ وَبَنَاتِهِنَّ وَالْحَقُّ فَرَّجَهَا وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٧٣﴾ وَإِنَّمَا تَلْمِزُونَهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 فِيهَا وَاللَّهُ يَخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧٤﴾ تَلَمَّزْنَا الْحَبْرِيَّةَ بِتَعْبِيدِهَا كَذَلِكَ يُعْبَىٰ اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ
 وَيُرِيهِمْ مَن يَتَّبِعُونَ ﴿البر: ١٧٠-١٧٣﴾

الموضوع الثاني: قصة الذين خرجوا مع موسى وقد اختارهم للقاء
 ربه جل وعلا لما وعده أن يكلمه فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِيهِمْ
 الْجَنَّةَ﴾ ﴿النساء: ١٥٢﴾ فصارتهم فصار موسى يدعو ربه ويقول: يا رب،
 ماذا أقول ليني إسرائيل وقد اختار خيارهم وعددهم سبعون، وقال: ﴿لَوْ
 شِئْتُ لَأَعْلَمْتَهُمْ مِّن قَبْلِ وَاسْتَأْذِنْتُكَ بِمَا قُلْتَ لِيهِمْ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا يَتَّقِيكَ فُجِدَ
 بِهَا مَن لَفَّاءَ وَتَبَدَّى مَن قَفَاءَ أَلَمْ يَرَوْا مَا نَعَمْنَا وَآلَمْ يَحِزَّ الضَّعِيفُونَ ﴿١٥٥﴾
 ﴿الأنعام: ١٥٥﴾ فصار يدعو ربه فأحياهم الله جل وعلا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْعُرُبِ فَذَلَّتْ لَهُمْ فَكُلَّ اللَّهُ مَوْتًا ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
 آلِهَةً لَّهُمْ فَطُبِعَ عَلَىٰ السَّامِيِّينَ وَلَيَكُنَّ أُصْحَابَ النَّارِ لَآئِبَةً كُفْرُوكُمْ ﴿١٥٦﴾ ﴿البر: ١٥٦﴾

الموضوع الثالث: قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر
 الموت فقال الله لهم موتوا ثم أحياهم.
 الموضوع الرابع: قصة الذي مر على قرية غلوية على عروشها:
 ﴿قَالَ لَوْلِي أُتِيَ. وَجَدِي وَأَلَهُ بَدَّ مَوْتَهَا وَأَمَّا اللَّهُ فَإِنَّهُ عَمَلُهُمْ بِتَتَدَّ قَالَ كَسْرُ الْفَيْتِ قَالَ

لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْسَتْ وَبَلَدٌ عَكَرَ فَانظُرْ إِلَى عَمَلَيْكَ وَشَرَايِكَ
لَمْ يَكْسِبْهُ وَأَنْظُرْ إِلَى جَسَدِكَ وَتَجَمُّدِكَ نَابِكُ الْفَنَائِسِ وَكَلْبُكُ إِلَى
الْوَيْطَانِ كَسَيْفٍ كُنِيزُهَا ثُمَّ نَكَّسُهَا لِحَمًا فَلَمَّا قَتَبْتِهَا لَمْ قَالَ أَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ
عَلَى كَيْفِي شَيْءٍ وَفَوَيْبٍ ﴿ (البر: ١٧٤)

الموضع الخامس: قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي
كَفَيْفَ تُنْزِلُ السَّمَاءَ قَالَ لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْقَائِلِينَ وَلَئِنْ لَمْ تَطْمَئِنِّ لَيْسَ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ
الْعُلَمَاءِ فَصُرِّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْأً ﴾ (البر: ١٢٦٠). يعني
قطعهن وجزئهن واخلط أجزاءهن وفرقها واجعل على كل جبل من
الجبال جزء، فقطعها وفرقها وخلط أجزاءها بعضها مع بعض ثم دعاهن
فأتين إليه يسمين كما كن، وأما ما جاء في سورة الكهف فهو نوم ضربه الله
عليهم سنين طويلة وهو دليل أيضاً على الإحياء، والله على كل شيء قدير،
فلا يعجزه شيء.

ففي الصحيحين أن رجلاً كان مسرفاً على نفسه وكان لم يعمل خيراً
قط ولكنه كان يخاف الله فحضره الموت فجمع أولاده فقال لهم: يا بني
أيُّ أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، فقال: إذا فعلوا ما أتول لكم، إذا أنا
مت فأحرقوني في النار حتى أكون فحمًا، ثم اسحقوني سحقاً دقيقاً، ثم
إذا كان يومٌ عاصف ذروا نصفي في البحر ونصفي الآخر في البر فوالله
لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً لم يعذب به أحداً من الناس، فنفقوا وصيته.

عند ذلك قال الله جل وعلا له: كن، فقام حياً، فقال له: ما حملك

على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فغفر الله له^(١).
 هذا شك في قدرة الله وشك في البعث، ومعلوم أن الشك في قدرة
 الله والشك في البعث كفر، ولكن الله يفعل ما يشاء، فلا يجوز لإتسان أن
 يقول أنه يجب على الله أن يفعل بهذا المخلوق كذا أو كذا، ولا يكون
 ذلك حجة على أن من أنكر البعث أو أنكر قدرة الله أنه لا يكون كافراً، لأن
 هذه واقعة عين بشخص معين والله أن يفعل ما يشاء.

فقول: أن من الآيات التي يستدل بها الإنسان على الله جل وعلا
 الآيات القولية، ومنها: القرآن ووجه دلالته على الله أنه من أعظم
 المعجزات ومن أكبر الآيات، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام كلام بشر
 أبداً وذلك من وجوه كثيرة جداً منها وجوه الترتيب والمعاني والفصاحة
 والبلاغة وما يشتمل عليه من الإخبارات ومن الأمر والنهي وغير ذلك،
 ولكن هذا لا يعرفه إلا من يعرف اللغة العربية.

ولهذا كان الكفار بعضهم إذا سمع القرآن سجد لفصاحته وبلاغته
 وليس لإيمانه بل لهذا البيان العظيم وكان الذين يعرفون اللغة تماماً
 عندهم من العناد والكبر ومن كيد دعوة الرسول ﷺ والحرص على ألا
 يسمعه أحد بحيث أنهم كانوا يتعاهدون ويتعاقدون ألا يذهب أحد منهم
 يستمع على رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في الليل في بيته، فإذا مضى
 أكثر الليل كل واحد منهم يقول لعل الباقين لا يعلمون عني فيذهب يسمع
 فيلقى أصحابه الذين كان يتعاهدون ثم يتلومون ويقول أحدهم إنه ليس

(١) البخاري (٣٣٣٣) كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، مسلم (٤٩٤٩) كتاب التوحيد،

باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت نفسه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وصالح مع قومه، وشعيب ولوط وموسى وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله جل وعلا، وكذلك الأنبياء التي ستكون مما يكون يوم القيامة وإلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وكذلك الأوامر التي تكون في المستقبل الذي قد تدركه وقد لا تدركه في هذه الحياة.

وكذلك ما بينه فيه العقول من النظر كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ فِي الْأَرْضِ وَغَيْبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَارٍ مَطْمَئِنَّةٍ لِلْعَالَمِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٥).

يتأملون ويعقلون هذه، والآيات كثيرة وكلها أدلة، وكذلك الأمور التي تفصح العاقل تماماً كقوله جل وعلا: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ١٣٥). لا يمكن أن يخلق مخلوق بلا خالق أو أن يوجد صدفة كما يقال هذا مستحيل، ولا يكون أبداً ولا يمكن أن نجد سيارة بلا صانع أبداً، فإذا كان مخلوقاً فلا بد له من خالق، فذكر أمرين أحدهما: ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ (الطور: ١٣٥) وهذا مستحيل.

والأمر الثاني: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ١٣٥). يعني هم خلقوا أنفسهم، وهذا أيضاً مستحيل، ولا يكون مثلهم خلقهم، وسكت عن الأمر الثالث الذي لا بد منه وهو أن لهم خالق خلقهم وهو الله جل وعلا، وهذه طريقة القرآن، يذكر الأمور الباطلة فيبطلها ويسكت عن الحق لينظر العقل فيه ويتأمل ويعلم ذلك، يقول الله جل وعلا: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا فِي

الْأَفَاقِ وَرَبِّ أُنْسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ لَحِقَّهُ ﴿١٥٣﴾ (صحت: ١٥٣). إما أن يكون ﴿أَنَّهُ﴾ الضمير يعود للقرآن أو يعود إلى الرسول وكلاهما متلازم، فالرسول والقرآن حق، ويقول جل وعلا: ﴿تَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّمَا لَكُمْ بِهِ حَقٌّ مِنْ نِعْمَتِهِ﴾ ﴿١٥٤﴾ (الطارق: ١٥٤). متى؟ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ سُرَابِجُ﴾ (الطارق: ١٥٤).

ثم كذلك من الآيات التي تدل على الرب جل وعلا المخلوقات مثل: السماوات والأرض، كما ذكر فهي من أعظم الآيات، وهذه السماوات بعضها فوق بعض ونحن نشاهدها، فالمشاهد لنا هو السماء الذي يقول الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوَظَنُوا كَيْفَ يَبْنِيهَا وَرَزَقَ سَمَاءَهَا وَمَا هِيَ إِلَّا قَوَائِمٌ﴾ (ق: ١٦).

وكذلك الأرض بهذه الصفات بما فيها من الجبال ومن الأشجار ومن البحار ومن الأنهار والنباتات المختلفة في ألوانها وطعومها، مع أن التربة واحدة والماء واحد، وكذلك من آياته جل وعلا آياته التي هي أوصافه وأفعاله، فهو يتعرف إلى عباده جل وعلا بصفاته وبأسمائه وبما يفعله لهم، وهي أشياء كثيرة جداً إذا تأملها الإنسان اقتنع بشيء منها، فهذا معنى معرفة الرب كون الإنسان يعرف ربه بهذه الجوانب وبهذه الأمور، يجب أن ينظر ويتيقن وبذلك يتيقن أن الله هو ربه جل وعلا ويسأل ربه جل وعلا أن يهديه لهذا، لأنه لا يد من هداية الله جل وعلا.

ومعلوم أن الناس عقلاء وكثير من العقلاء عقولهم ذنوبية فقط، ما هدتهم عقولهم إلى معرفة الله جل وعلا وإلى معرفة مستقبلهم الحقيقي

وإنما هدتهم على مخترعات ذنوبية كما هو مشاهد الآن، ومع ذلك هم كفرة، لهم هذه الحياة الدنيا وإذا ماتوا فهم في جهنم، فلم تضعهم هذه العقول، ولهذا يجب على العبد أن يسأل ربه الهداية دائماً مع هذه الدلائل الظاهرة الواضحة التي إذا نظر إليها العاقل اطمئن.

وليس هناك أمور صعبة كما يتصوره أهل الكلام والجدل الذين جاءوا بأمر لم تأت بها الرسل وإن كانت صحيحة في نفسها غير أنها طرق ملتوية وصعبة على كثير من الناس، بالنظر إلى الحوادث يلزم لها من أين جاءت وأصلها، أمور لها جواهر وأعراض وما أشبه ذلك والجوهر هو الشيء الذي يقوم بنفسه والعرض هو الذي يعرض ويذول ويعرض لغيره ولا بد أن يقوم بغيره.

فهذه أمور وإن كانت في نفسها قد تكون صحيحة وقد تهدي ولكنها لا تكفي ولم تأت بها الرسل وإنما جاءت الرسل بالأمور الواضحة كالذي ذكرنا وغيره.

فَقُلْ: يَا أَيُّهَا وَمَخْلُوقَاتِي، وَمِنْ آيَاتِي: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،

الشرح

يعني كون الليل يأتي فتظلم الأجزاء كلها ثم يأتي النهار ويزول الظلام وهكذا دائماً كل واحد يطلب الآخر حيثما خلفه بتدبير متقن يدل على أن له مدبر ولا يمكن أن يكون المدبر من جنس هذه المخلوقات، فهو ليس كمثله شيء جل وعلا، ومعلوم أن الليل والنهار من أثر الشمس وظل الأرض، والذي وضع الشمس بهذه الطريقة هو الله جل وعلا،

ولهذا لما قال الكافر العبيد لإبراهيم لما دعاه إلى الإيمان بالله قال: ﴿زَيْقَ
 الْفُورِ يَحْيَىٰ- وَصَيْبُ قَالَ أَنَا نَحْيَىٰ- وَأَمِيَّتٌ قَالَ إِيْرَهُمْ فَكَرَّكَ اللَّهُ تَأْيِيْدًا لِلْمُنِيْمِيْنَ مِنْ
 الْمَشْرِيقِ فَأَتَىٰ بِهَا مِنْ الْمَشْرِيقِ فَهَوَّتْ الْفُورُ كَفْرًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ ﴿١﴾
 [البقرة: ٦٥٨]، فالعتاد لا يقضى؛ لأن الله جل وعلا أرسل للمعاندين الحديد
 ولهذا يقرن جل وعلا بين الكتاب وبين الحديد في مواضع، ينزل الكتاب
 وينزل الحديد فيه بأس شديد، فالحديد للمعاندين المكابرين والكتاب
 لمن يريد الأدلة ويفتتح بها، والكتاب يدل العقول ويرشدها إلى معرفة
 وعبادة الله جل وعلا.

مثل أعرابي كان مع إبله لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم فلسفة ولا غير
 ذلك، ولكنه يفكر وعنده عقل قيل له: كيف عرفت الله؟

فقال: يا عجب، الأثر يدل على المسير والبصرة تدل على البعير، بحار
 ذات أمواج، وسماوات ذات أبراج، وجبال ذات فجاج، ألا تدل على الخالق
 البصير^(١)، يعني هذه الأشياء المشاهدة التي يشاهدها دلائل واضحة،
 وهكذا العقل، ولهذا يرشد الله جل وعلا إلى ذلك، يقول الله جل وعلا:
 ﴿وَلَوْ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاسْتِكْتِافِ الْبُرُوجِ وَالْمَاءِ الَّذِي يُنْحَرِي فِي
 الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمِمَّا أُنزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ نَارٍ مُّخْتَلِفًا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ تَوْبِهِا
 وَمِمَّا فِيهَا مِنْ حَشْرٍ ذَاكُرٍ وَمُضْرِبٍ الْإِنْبِجِ وَالشَّجَارِ السَّخْرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ لَا يُحْسِبُ الْقَوْمُ بِتَعْوِيلِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]. يعني عندهم عقل.

وفي كل جملة من هذه الآية دلائل هائلة بينة واضحة، خلق

(١) تفسير ابن كثير، سورة البقرة، آية: ٢٢.

السموات والأرض وكذلك البحار وتسخيرها وما فيها من الحيوانات وغيرها والمنافع التي تنفع الناس، وكذلك ما أنزل الله من السماء من ماء، وكيف يحمل الماء ومن أين يأتي وكيف يحمله السحاب الذي يشبه الدخان، وإذا نزل الماء ما هو أثره وكيف تنشق الأرض وتخرج أنواع النباتات التي فيها حياة الإنسان وحياة البهائم والطيور وغيرها مما هو على الأرض، من أين خرج ومن هو الذي شقق الأرض عنه ثم ألوانه وطعمه المختلفة مع أن الماء والتراب واحد، ثم الرياح التي مرة تأتي من هنا ومرة تأتي من هنا وهي تحمل السحاب وقد تقطع العماثر والأشجار وغيرها، كل هذا دلائل واضحة على أن الله جل وعلا هو الخالق وهو الذي يجب أن يعبد.



وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمَنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ الْبَلُ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾
 بِإِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَهُ ﴿ (سجدة: ٣٧).

الشرح:

ويعني أنها من أعظم الآيات، كونه خلق الشمس بهذه الصورة وعلى هذه الصفة العظيمة العجيبة وبهذا الارتفاع الشاسع ثم سرياتها وجريانها مع الأرض بهذا النظام وبالوقت الطويل جداً وهي لا تتغير على ما هي عليه، لو أراد الناس أن يضيئوا بلدة من البلدان فسوف يتعبون بالتمديدات وبإيجاد المولدات وبأشياء تتطلب عملاً كثيراً جداً وهي بقعة صغيرة

محصورة، وهذه تضيء الأرض كلها إضاءة هائلة والآلاف من السنين وهي هكذا ولم تنقص وهي على ما هي عليه حتى يأتي وعد الله جل وعلا، وكذلك القمر في إضاءته وما يترتب عليها من الآيات والمنافع، وهذا الذي بأمرنا الله به جل وعلا أن نتأمله حتى يدعونا ذلك إلى عبادته، ولهذا قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ (صلى: ١٧).

والسجود يقصد به التوجه بالعبادة إلى من خلق الشمس والقمر وسخرهما ﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ (صلى: ١٧) أي أن أكثر الناس لا يتأمل ذلك ولا يتفجع به فيصبح إما أن يعبد نفسه أو يعبد مخلوقاً مثله أو أقل منه كأن يكون ميتاً لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن داعيه.



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ رَبُّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الأعراف: ٥٤).

الشرح:

في هذه الآية ذكر أن الخلق وقع بعد لم يكن موجوداً، ولذلك قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وهذه الأيام الستة التي ذكرها إما أن تكون مقدرة بهذه الأيام التي نعرفها أو تكون مقدرة بشيء آخر، أفلاك أخرى، مخلوقات أخرى قبل خلق السموات والأرض الله يعلمها، وما وراء هذه المخلوقات لا نعلمها ولا نتكلم بها، وإلا فانه جل وعلا أول لا مبدأ له وما كان ربنا جل وعلا قبل خلق السموات والأرض لا يعقل شيئاً معطلاً

مبينة حقيقتها لها أبواب ولا أحد يدخلها إلا بإذن ويفتح له، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل الذي فيه احتضار الميت وقصة أنه إذا مات وأن روحه يعرج بها إلى السماء، ثم يستفتح لها باب السماء، فإن كانت من أهل الخير والبر فتح لها ثم لا يزال يستفتح لها باب السماء إلى أن تنتهي إلى السماء التي فيها الله، فيقول الله جل وعلا لهم: اكتبوا كتابه في عشرين وأعيدهم إلى الأرض فمنها خلقتهم وإليها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

أما إذا كان كافرًا أو كافراً فإنه إذا استفتح له باب السماء الدنيا لم يفتح له ثم ينادي متأدي متأدي أن اكتبوا كتابه في سبعين، ثم يقول: تطرح طرْحاً فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ لَوْ تَهْوَى بِهَا الرِّيحُ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ (الحج: ١٧).^(١) ولكنها ترجع إلى جسده حتى تكون معه في القبر ويحصل العذاب على الروح والبدن معاً، وكذلك في حديث المعراج وهو ثابت بالتواتر أن رسول الله ﷺ ذهب بصحبة جبريل، فلما وصل إلى السماء الدنيا استفتح جبريل باب السماء، فقيل له: من؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. فقيل له: أبعث - يعني أرسل - قال: نعم. ففتحوا له. وهكذا في السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة. هكذا يذكر^(٢)

(١) أحمد (١٧٨٠٣)، الحاكم في المستدرکة (١٠٦)، البيهقي في السنن الكبرى، وفي الشعب الإيمان، وجميعها من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) حديث الإسراء صحيح، وهو منقطع من أحاديث مفرقة، من ذلك هذا اللفظ كما بيّنه الحافظ ابن كثير في تفسيره «الإسراء» ومن قبله البيهقي في «الأسماء والصفات» (١١٥-١١٦). أخر

فقول أهل الهيئة الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس: إن هذه الزُّرقة التي نشاهدتها ليست حبيقة وإنما هي انعكاسات أبخرة أو أوكسجين أو بخار أو غير ذلك كلامٌ غير صحيح، فإله جل وعلا أخبرنا أنه خلق السماء وأمرنا أن ننظر إليها: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (اق: ١٦).

وكذلك يقول: ﴿إِنَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِحُجْرَتٍ عَمُودًا﴾ (الرحمن: ١٢) فهي مقببة على الأرض والسماء التي فوقها كذلك مقببة عليها والتي فوقها كذلك، والشمس والقمر والنجوم تحت السماء الدنيا زينة لها كما أخبر الله جل وعلا، فهذا من آيات الله جل وعلا.



﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

الشرح:

الاستواء فعل خاص بالعرش، والله جل وعلا غني عن العرش، ولكنه جل وعلا أخبرنا أنه خلق العرش ثم استوى عليه، والعرش وحمة العرش وغيرهم فقرأ إلى الله جل وعلا والله هو الغني بذاته عن كل ما سواه ولكنه يفعل ما يشاء وكل فعل يفعله فهو لحكمة، ولهذا أخبرنا بذلك لنؤمن به ونبتلي عباده هل يؤمنون بهذا أو يردونه أو يضلون فيه؟ فيجازي من آمن على حسب خير الله جل وعلا ومن لم يقبل ذلك فجزاؤه عند الله وليس بمعجز.



﴿يَتَّبِعِي الْيَوْمَ وَاللَّيْلَةَ تَطْلُبُهُ حِينًا﴾.

الشرح:

وهي ﴿يَتَّبِعِي﴾ أنه يدخل هذا بهذا، فتجد النهار ملتصق بالليل والليل ملتصق بالنهار وكل واحد يطلب الآخر بسرعة وهكذا إلى أن يأذن الله جل وعلا في تغير الكون، فهناك يبدأ التغير فيأتي يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع، وهذه الأيام الثلاثة من أيام الدجال حين يخرج، وهذا إيذان بتغير الكون وكذلك خروج الشمس من المغرب حيث يطول الليل على كثير من الناس الذين يتعجبون ثم يخرجون وينظرون ويعودون مرات متكررة، بينما هم كذلك إذ الشمس خارجة عليهم من جهة المغرب فتسير على هذا المنوال حتى يشاهدها أهل الأرض كلهم ويعلمون أنها خرجت من المغرب يعني انعكس سيرها ثم بعد ذلك تعود كما كانت إلى أن يتفخ في الصور.

• • •

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾.

الشرح:

يعني أنها تسير بدقة وإتقان بأمر الله جل وعلا وليس بأمرها هي، هي ليس لها تصرف وإنما جل وعلا هو الذي أمرها بهذا.

• • •

﴿أَلَا لَلْغَلَقِ وَالْأَمْرِ﴾.

الشرح:

يعني هو الذي خلق هذه الأشياء المشاهدة، وليس معه من يعاونه أو

بمساعدته أو يشاركه في ذلك - تعالى الله وتقدس - والمعطف في قوله: ﴿الْمَخْلُوقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الاعراف: ٥٤]، يدل على المغايرة، فالخلق شيء والأمر شيء، الأمر الذي يأتي بقوله وإذنه بأن يقول للشيء كُن فيكون وكذلك يأمر عباده بما يشاء وينهاهم عما يشاء، فالأمر من صفاته والخلق آثار أفعاله.



﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَكِّيَّةِ﴾ [الاعراف: ١٥١].

الشرح:

﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعظم، فهو جل وعلا يشي على نفسه؛ لأن الخلق لا يستطيعون أن يصلوا إلى الشاء الذي يستحقه الله جل وعلا، و﴿رَبُّ الْمَكِّيَّةِ﴾ أي الخلق كلهم سواء كان عاقل أو غير عاقل.



وَالرَّبُّ هُوَ الْمُعْبُودُ،

الشرح:

يعني أنه هو الذي يجب أن يُعبد، قوله: ﴿رَبُّ الْمَكِّيَّةِ﴾، ﴿رَبُّكُمْ اللَّهُ﴾ [الاعراف: ٥٤]، ﴿يَتَأْتِي النَّاسَ أَنْفُسًا وَأَرْزَاقُكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فهو الذي يجب أن يُعبد؛ لأنه هو الذي يملك لهم الجزاء على العبادة، ويملك التعذيب إذا لم يعبدوه، وليس ذلك لأحد من الخلق مع أنه هو الذي أوجدهم وهو الذي يرزقهم ويعاليتهم، ولكن أكثرهم يكفر بالله جل وعلا، ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على

تَجَسَّوْا بِقُوَّةِ السَّمَاوَاتِ وَتَلَسَّوْا بِمَقْعَدِ الْعَرْشِ ﴿٢١-٢٢﴾

الشرح:

يعني أنكم تعلمون أن الله هو الذي يفعل هذه الأشياء، وهو الذي خلقكم ولم يشاركه في خلقكم مشارك ولم يعاونه على ذلك معاون - تعالى الله وتقدس - هذا شيء يقربه الخلق، فإذا سألت الكافر عن خلقه قال: الله ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ١٨٧]. وكذلك إذا سألتهم عن خلق السماء ومن خلق الأرض يقولون: الله، وإذا سألتهم من الذي ينزل المطر وينبت النبات: يقولون الله، ومن الذي خلق الأرض على هذه الصفة وجعلها مستقرة ويمكن المشي عليها والجلوس عليها والانتفاع بها ولم تكن مضطربة متحركة، لهذا إذا حصل اضطراب في توازن هلك من عليها، إذا حصل زلزال في جهة من الجهات حدث الهلاك والدمار، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزال: ١٦]. الزلزال الحقيقي وليس مثل هذا، بل كلها بجملة تنزلزل، ولهذا تصير الجبال ﴿سَكَّانِيهِنَّ السَّمْعُورِيَّاتِ﴾ [الفرع: ٤٥]، أي: مثل الصوف إذا انتفض ثم بعد ذلك تصير هيئة من شدة الزلزال ويهلك كل من عليها إذا أوحى الله إليها وأمرها بذلك، أما الآن فجعلها جل وعلا مستقرة ثابتة ويمكن الانتفاع بها وجعلها ﴿كِفَاةً ﴿١١﴾ أُنْبَاءً وَأَثْرًا﴾ [الرسالات: ٢٥-٢٦]. يعني بطنها محل الأموات، وظهرها ذلولا للأحياء يتضعون بها، وكذلك يجعلون في بطنها ما يؤذيهم بالروائح وغيرها، فهي مسخرة لهم بخلق الله لها ومع ذلك سوف تحدث أخبارها، ذلك بأن كل مكان سوف يتكلم ويقول: فلان

عمل عليّ كذا وكذا، ويصح هذا المكان شاهداً عليه، إما بالخير وإما بالشر، ويقول جل وعلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٦]. والسماء والأرض تبكي لأنها تتأثر بالطاعة، فإذا مات صاحب الطاعة الذي يطيع الله جل وعلا على الأرض فإنها تبكيه البقعة التي كان يتعبد فيها وكذلك الموضع الذي يصعد عمله منه إلى السماء يبكيه؛ لأنه يفقد ذلك العمل الذي يعبد الله جل وعلا به ويسبحه ويذكره ويهلله، والذي خلق هذه الأشياء وأنزل المطر وأتت النبات هم يعلمون أنه هو الله وحده ليس معه مشارك، فلماذا جعل ذلك دليلاً على وجوب أن يعبدوه، فقال: ﴿فَسَلَا تَعْبُدُوا إِلَهًا سِوَاكَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. مادام أنكم تعلمون أنه هو وحده المتفرد بما ذكر، فيجب أن تفردوه بالعبادة.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: الْخَالِي لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَجِبُّ
 لِلْعِبَادَةِ (١).

الشرح:

يعني أن هذا أمر ظاهر جلي ودليل لا يخفاء فيه، أن الله جل وعلا هو الذي يجب أن يُعبد.

(١) عقيدة القرعة الشاذبية (١/ ١١).

وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا بِمَثَلِ: الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ،
وَمِثْلَةِ: الدُّعَاءِ،

الشرح:

هذا هو الأصل الثاني الذي سيذكره، والدعاء معروف، وهو الاتجاه إلى الله جل وعلا، والعلماء قسموا الدعاء إلى قسمين: دعاء مسألة ودعاء عبادة، فدعاء المسألة هو كل شيء تطلبه من الله من أمور الدنيا أو الآخرة، أما دعاء العبادة فيدخل فيه هذا ويدخل فيه التسبيح والتكبير والقراءة والصلاة والصدقة وغيرها وذلك لأن الذي يقرأ القرآن أو يسبح أو يصلي فهو يفعل ذلك راجياً به ثواب ربّه، فيكون دعاء العبادة أعم وأشمل ولا يخرج منه شيء من العبادة، ودعاء العبادة لا أحد ينكره ولكن عباد القبور أنكروا أن يكون دعاء السؤال عبادة، يريدون أن يبرروا أنهم إذا قالوا يا فلان اغتنا يا فلان أعطنا كذا وكذا، وهو ميت أن هذا لا يكون عبادة، وهذا مكابرة، وليسوا من أهل اللسان الذين يرجع إلى قولهم وليسوا من العلماء الذين يعتبر خلافهم وإنما يقولون ذلك من باب المغالطات واتباع الهوى والعادات والمألوفات التي ألفوا عليها أهل بلدهم أو من تلقوا عنه علومهم وهو ليس حجة إنما الحجة ما جاء به الرسول ﷺ وما أجمعت عليه الأمة من علماء السلف.

وَالخَوْفُ، وَالرُّجَاءُ، وَالرُّقْيَةُ، وَالرُّغْبَةُ، وَالرُّغْبَةُ، وَالرُّغْبَةُ، وَالرُّغْبَةُ،
وَالْإِنَابَةُ، وَالْإِسْتِعَانَةُ، وَالْإِسْتِعَانَةُ، وَاللَّذِيخُ، وَاللَّذِيخُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ
مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ السُّجُودَ قَوْلًا تَدْعُونَ مَعَ أَقْوَامًا﴾ (النبي: ١١٨).

الشرح:

﴿السُّجُودُ﴾ هنا المقصود بها مواضع السجود من بدن الإنسان، يعني أن أعضاء الإنسان نعمة من الله وهبها له، فهي له يجب أن يشكر عليها وأن تعبد بها، فلا تعبدوا بها معه أحد، وقيل: ﴿السُّجُودُ﴾ مواضع السجود من الأرض سواء كانت مبنية ومحاطة ومعدنة لأداء العبادة أو كانت غير مبنية؛ لأن الرسول ﷺ يقول: جعلت لي الأرض سجداً وطهوراً، فأني إنسان من أممي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره^(١). فيكون المسجد هو الموضع الذي تسجد فيه وهو لله، ومعلوم أن المساجد المبنية تسمى بيوت الله، فهي لله لا يملكها أحد بل هي مشاع بين المسلمين يؤدون فيها العبادة لله وحده؛ لهذا قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (النبي: ١١٨)، وهنا المقصود بالدعاء دعاء العبادة ويدخل فيه دعاء المسألة. اهـ.

فَمَنْ ضَرَفَ بِهَا شَيْئًا لِيُغَيِّرَ اللَّهَ فَهُوَ شُرْكَاءُ قَائِلًا:

الشرح:

الكفر يكون أعم من الشرك؛ لأنه قد يوجد الكفر بلا شرك، فمثلاً اليهودي الذي لا يعبد الأصنام وإنما يعبد الله ولكنه لم يؤمن بمحمد ﷺ

(١) البخاري (٣٣٥) كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض سجداً وطهوراً، و«السنن» (١٣٣) كتاب التسلل والتميم، باب التيمم بالصعيد، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٠٥٦) في «صحيح الجامع».

يكون كافراً وإن لم يكن مشركاً وغير ذلك، فالكفر أعم، ولهذا قسم العلماء الكفر أقساماً خمسة، أحد هذه الأقسام الشرك، ثم قسموا الشرك إلى قسمين: شرك أكبر وشرك أصغر، ومن أقسام الكفر النفاق. وقسموا النفاق إلى قسمين: نفاق اعتقادي وجعلوه أقساماً ستة وكل واحد كافٍ في كون الإنسان خارجاً من الدين الإسلامي وخالداً في النار ونفاق عملي وجعلوه أقساماً خمسة، وقالوا: إذا اجتمعت هذه الأقسام الخمسة العملية في إنسان فلا بد أن يكون عنده نفاق اعتقادي، فيكون منافقاً خالصاً كما قال الرسول ﷺ: «من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»^(١)، ثم قالوا: قسم ثالث من الكفر وهو كفر الإباء والاستكبار، وكفر الإعراض، وكفر الدعوة، وقسم آخر من الكفر هو كفر النعمة وهو غير مخرج من الدين.



وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ قَوْلِ إِنَّهَا كَفْرٌ ﴾ (المومن: ١١٧).

الشرح:

هذا يدلنا على أن شرك المشركين كان عبادة الله ولكنهم يعبدون معه غيره، وما كانت العبادة خالصة للأصنام وإنما كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، والإله هو المألوه الذي تأله القلوب وتيب له وتحيه وتذل له وتعظمه وتخضع له.



(١) البخاري (٢٤٥٩) كتاب المظالم، باب إذا غاصم جرح، «سنن الترمذي» (٢١٧٢)، كتاب الإيمان، باب ما جاء في علامة المنافق، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٨٨٩) في «صحيح الجامع».

﴿لَا بُرْهَانَ لِكُفْرِهِمْ﴾

الشرح:

هذا خرج مخرج الغالب الواقع، وإلا كل داع يدعو غير الله ليس له برهان، والبرهان هو الدليل الظاهر، وليس كل دليل يكون برهاناً، وإنما كل برهان دليل، فالبرهان هو الدليل الجلي الظاهر، والمعنى أن المشركين ليس لهم برهان في شركهم، فعلى ذلك يستحقون العقاب؛ لأنهم يدعون مع الله ما لا دليل لهم عليه، وهذا معنى ما جاء في كثير من الآيات أنهم لا سلطان ولا حجة لهم على ما عبدوا ودعوا.



﴿فَلِكُلِّ سَاجِدٍ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المؤمن: 117].

الشرح:

هذا فيه تهديد عظيم؛ لأنه ذكّر الحساب وأنه يكون عند الله جل وعلا دل على أنه سوف يفجزوه به فيدو له ما لم يكن يحسب في ذلك المكان.



﴿لَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ كَلِمَاتٍ كَثِيرَةً﴾ [المؤمن: 117].

الشرح:

والفلاح هو الفوز بالظفر المرجو، فالكافر لن يفلاح فهو خاسر وخائب وكفى به حبيبة وخزياً أن يكون في جهنم ويبقى فيها خالدًا.



وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخَّ الْعِبَادَةِ».

الشرح:

هذا الحديث معروف في الترمذي، وهو ضعيف، ولكن معناه صحيح، ودلت عليه آيات وأحاديث ثابتة، وأصح منه «الدعاء هو العبادة»^(١)، وهو حديث حسن.



وَالذَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٦٠].

الشرح:

وما دام ربنا أمرنا بالدعاء فهو عبادة، وهذا الدعاء فسر بدعاء المسألة، وفسر بدعاء العبادة، ولهذا يقول بعض المفسرين: «أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [البقرة: ١٦٠] أي: أجبكم، وبعضهم يقول: أعطكم، فالذي يقول: أجبكم، يجعله دعاء عبادة، والذي يقول: أعطكم، يجعله دعاء مسألة، وكل دعاء في القرآن كما قال ابن عباس رضي الله عنهما هو دعاء عبادة، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا سَاءَلْتُ بِكَ كَلِمَاتٍ كَلِمَاتٍ كَلِمَاتٍ أَجِبْ دَعْوَةَ الْمَدْعَى إِذَا دَعَاكَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهذا يحتمل أن يكون دعاء مسألة ويحتمل أن يكون دعاء عبادة، ولكن جاءت آيات واضحة وظاهرة في دعاء المسألة وهذا لا إشكال فيه.



(١) استن الترمذي (٢٩٦٩) كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، فمن ما جاءه (٣٨٢٨)، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، من حديث الشعثان بن بشير رضي الله عنه، قال الألباني: صحيح. نظر حديث رقم (٣٤٠٧) في الصحيح الجامع.

خوف طبيعي، وكون الإنسان يخاف من ظالم أو من سبع أو من حية أو ما أشبه ذلك لا ضير عليه في ذلك، وإنما الخوف الذي يجب أن يكون خالصاً لله هو الخوف الذي يتضمن التعظيم أي يخافه وهو يعظمه، والخوف الغيبي مثل الذي يحصل لعباد الأولياء، يخاف أنه يطلع على ما في قلبه ثم يعاقبه، فهذا لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا.



وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

الشرح:

الرجاء هو توقع الخير، يرجوه ويتوقفه أن يحصل له، فتوقع الخير من الله عبادة، كون الإنسان يتوقفه من الله ويتنظره فإنه عبادة لله جل وعلا وهو من معنى أن الله جل وعلا يجلب المنافع لعباده، فيجب أن يكون ذلك خالصاً لله جل وعلا، وكل إنسان يرجو رحمة ربه وفضله، ويخاف من ذنوبه ولكنه يرجو عفو الله ورحمته، وهذا من أفضل العبادات ويجب أن تخلص لله جل وعلا.



وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١٢٢].

الشرح:

التوكل هو وكل الشيء إلى من يقوم به تمام القيام، تقولون: وكلت أمري إلى فلان، إذا أسندته إليه واكتفيت به. فالتوكل هو إسناد الأمر إلى من بيده

القيام بذلك والاكتفاء بتصرفه وبفعله، وهذا من أفضل الأعمال كون الإنسان يعتمد على ربه، ولكن ليس معنى التوكل ترك فعل السبب وإنما يفعل السبب ثم يعتمد على ربه في حصول المراد سواء من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، ولا يجوز أن يكون هذا على الإنسان ولكن الوكالة التي تكون للإنسان هو أن يكل إليه ما يستطيع تصرفه من بيع أو شراء أو إتيان بحاجة أو ما أشبه ذلك من أمور ظاهرة يستطيع أن يتصرف فيها يصح أن يقال إني وكلت في هذا الشيء، يعني لا بد أن يحصر ويعين ومع ذلك لا يجوز أن يقول: توكلت عليك كما لا يجوز الاعتماد على السبب لا بد أن يكون الاعتماد على الله جل وعلا ثم فعل السبب؛ لأن الله هو الذي سبب الأسباب وهو الذي إذا شاء عطّلها، والتوكل شرط في الإيمان؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ﴾ [البقرة: 129]. فمعنى ذلك أنه إذا لم يحصل التوكل على الله فليس الإنسان بمؤمن.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

الشرح:

معنى ﴿حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3] يعني كافيته، ومن كان الله حسيه لا يضره شيء أبداً، ولكن هذا قد لا يتحقق لكل إنسان، فلا يكون معناه أنه يقول: أنا توكلت على الله ثم لم يحصل لي مراد؛ لأن الله علام الغيوب، القلب قد يكون فيه شيء من الالتفات إلى غير الله جل وعلا أما إذا توكل الإنسان على ربه حق التوكل فلا يمكن أن يتخلف عنه مراده.

وَذَلِيلُ الرَّهْبِيَّةِ، وَالرَّهْبِيَّةِ، وَالْخُشُوعِ:

الشرح:

الرغبة هي الرجاء المؤكد الذي معه حب وخشوع لمن يرجوه، وهذا لا بد منه في جميع العبادات، فيرجو رجاة متضمناً للذل والخشوع الذي معه التعظيم، والرغبة هي الخوف والخوف من العباداة، ولكن الرغبة تتضمن خوف القلب أما مطلق الخوف فهو أهم من الرغبة مع التعظيم، خوف القلب الذي يسميه الناس خوف السر يعني أنه في سر الإنسان، وعباد القبور يقولون: فلان فيه سر، يتصدون أن الولي يطلع على ما في القلب، وأنه يتصرف في ذلك، فقد يعاقب وقد يثيب، وهذا من أعظم الشرك بالله جل وعلا ومن حصل له شيء من ذلك فهو مشرك، لأن الاطلاع على ما في القلب والخوف الغيبي خاص بالله جل وعلا، يجب أن يكون خالصاً لله جل وعلا وألا يكون لأحد من الخلق فيه شيء، والخشوع هو خوف القلب مع ذلك وهو قريب من الخوف ولكنه أبلغ لأنه يكون في القلب ويكون في البصر بأن تدرف العين وتدمع ويكون في السمع بأن يخضع كما قال الله جل وعلا: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِرَحْمَتِي فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (الحق: ١٠٨).



﴿إِنَّمُمْ كُنَّا بَسْمُوعِي فِي الْمَكْرَمَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَبُّكَ وَرَبِّي﴾

﴿وَكُنَّا نَا خَشُوعِي﴾ (الاب: ١٩٠).

الشرح:

يعني الأنبياء المذكورين في هذه السورة، فإنه تعالى عدد الأنبياء

وَقِيلَ الْخَشْيَةَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْنَ وَالْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ يَنْتَبِهُونَ﴾
وَقَوْلُهُمْ لَمَّا تَدْعُونَ ﴿البر: ١٥٠﴾.

الشرح:

والخشية أيضاً قريبة من الخوف إلا أنها تكون أخص من الخوف العام، وهذه الخشية تكون في جميع الأشياء وليست في شيء معين ويجب أن يكون المخشي هو الله جل وعلا ولا يخشى مخلوق من المخلوقات؛ لأن المخلوق ناصيته بيد الله جل وعلا يتصرف الله جل وعلا فيه كيف يشاء ولن يستطيع أن يستقل بشيء إلا بإذن الله، فلا يستطيع أن يضر أو ينفع إلا بإذن الله جل وعلا، فإذا أخلص الإنسان خشيته لربه جل وعلا فإنه يكفيه ما أهمه.



وَقِيلَ الْإِنَابَةَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَبُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَبُونَ﴾ ﴿الزمر: ٥٤﴾.

الشرح:

والإنابة هي الرجوع مع العمل الذي يتضمن الدل والتعظيم، أتى إذا خضع وأذل راجعاً إلى ربه جل وعلا، وهو يأمر جل وعلا بالإنابة وهي أخص من الإسلام؛ لأن الإسلام أمر عام وهو الاستسلام والانقياد لله عموماً أما الإنابة فهي أبلغ من ذلك.



وَذَلِيلُ الْاِسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا تَبَسُّدًا وَرَبَّنَا تَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

الشرح:

وهذا يجمع العبادة كلها؛ لأن العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة التي تكون في الجوارح والباطنة التي تكون في القلب و﴿رَبَّنَا تَبَسُّدًا﴾ يعني العبادة كلها لك؛ لأن تقديم الضمير ﴿رَبَّنَا﴾ الذي يسمى معمولاً على العامل الذي هو ﴿تَبَسُّدًا﴾ يدل على أن العبادة يجب أن تحصر في المُقَدَّم ولا يجوز أن تكون لغيره، فهو يعطي معنى لا تعبد إلا أنت.

وكذلك ﴿رَبَّنَا تَسْتَعِينُ﴾ مثلها تدل على أن الاستعانة يجب أن تكون بالله وحده، وتكون هذا يجمع العبادة كلها لا أن العبادة تكون في الشيء الذي أمر الله جل وعلا به ولا تحصل العبادة من الإنسان إلا إذا حصل العون له من ربه جل وعلا، وهذا يدلنا على أن العبد لا حول له ولا طول، وإنما الأمور كلها بيد الله تعالى، إذا من الله جل وعلا على عبده فأعانه وهده فهو فضله، فالفضل لله ابتداء واستدامة ونهاية، فمن وجد أنه عابد لله فليشكر ربه لأن هذا فضل الله وأنه ليس من عنده شيء، لو أن الله جل وعلا منع عنه فضله لهلك، فلماذا لا تتفك العبادة عن الاستعانة، فلا بد للعبادة من استعانة، فإذا لم تحصل الاستعانة ما حصلت العبادة ولهذا الأمر أوجب الله جل وعلا ذلك علينا أن ندعوه به في كل ركعة من ركعات الصلاة وهذا من رحمة الله جل وعلا بنا؛ لأنه يعلم مسيس حاجتنا إليه، ولكن يجب أن يفهم الإنسان الشيء الذي يردده في صلاته وأن

العبادة تكون لله وإذا حصلت منا فهي بعونه، ومعنى ذلك أن الفضل لك وأنا لا نستطيع أن تأتي بشكر نعمتك؛ لأن الشكر نفسه نعمة، ففوق العباد نعمة وشكره عليها نعمة، فلا يستطيع الإنسان القيام بحق الله ولكن يكفي أن يعترف لله جل وعلا بالفضل، وأنه مقصّر في حقه، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ سَيِّدَ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، وَمِنْ شَرِّ مَا بَعَثْتَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِنِسْبَتِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(١). فسيد الشيء هو مقدمه وعظيمة وهذا سيد الاستغفار، ومعنى أبوء لك بنعمتك يعني أعترف لك بنعمتك عليّ وأنا لا أستطيع القيام بشكرها، وأبوء بنسبتي يعني أعترف بأنني منسب ولا أستطيع أن اتني بالنسب الذي يخلصني من ذنبي، وإنما هو فضلك إذ تفضلت عليّ وعفوت عني، وقوله: ﴿إِنَّمَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَرَأَيْتَ كَلِمَاتٍ﴾ [التافات: ٥]، يقول العلماء: هذه الآية جمعت معاني كتاب الله كله؛ لأن المفسود ينزل الكتاب هو الأمر بعبادة الله جل وعلا والعبادة تكون بالاستعانة والاستعانة تكون في الأمور العامة والخاصة كلها، يجب أن يكون ذلك بالله، فإن كان بغير الله ضاع الإنسان وضلّ ووكل إلى ذلك الذي استعان به، ومن وكل إلى مخلوق فقد وكل إلى عبادة وضاعة وإن ظهر أنه في وقت من الأوقات يتحصل على مطلوبه فهو لا يدوم أبداً

(١) البخاري (١٣٢٣) كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح. مسند الترمذي (٣٣٩٣) كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، من حديث قتادة بن لؤس رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». نظر حديث رقم (٢٦١١٢) في «صحيح الجامع».

وسوف ينتهي، والمقصود أن دليل الاستعانة والعبادة عامة في هذه الآية.



وفي الحديث: «... وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١).

الشرح:

هذه جملة من حديث رواه الترمذي والإمام أحمد في المستد وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يا غلام، أعلمك كلمات ينفعك الله بهن: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

ومعنى «احفظ الله»: احفظ أوامر الله من أن تصيِّبها، واحفظ حدوده ومحارمه أن تقع فيها، وذلك بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه الكلمات من أنفع ما ينهي للإنسان أن يعتني بها، كلمات خرجت من مشكاة النبوة، ويحفظ الله جل وعلا للعبد يكون جزاء لحفظه، وهو ينقسم إلى قسمين: حفظ خاص، وحفظ عام، فحفظه الخاص هو حفظه لأوليائه في أديانهم وقلوبهم، فلا ينصرفون عن دينهم ولا تغير قلوبهم بالصدود عن الله جل وعلا، أما العام فهو في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وغيرها، وهذا أسهل ولكن الأول هو المهم، وعادة الله جل وعلا أنه يجعل الجزاء

(١) «سنن الترمذي» (٢٥٦٦) كتاب صفة يوم القيامة، باب ما جاء في صفة ألواني العرش، وقال أبو موسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٢٥٣٧) مستدركه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٠٧٨) في «صحيح الجامع».

من جنس العمل، فمن حفظ حدود الله وواجباته حفظه الله جل وعلا وإذا ضيع ذلك فإنه يُضيع وتجاهه في آخر عمره لا يعرف ربه ولا يعرف أين يتجه ولا كيف يتصرف، وليس معنى ذلك أن الإنسان إذا أهدفت عليه الدنيا وحصل له مراده في الدنيا أنه يكون محفوظاً بل الدنيا مستضي وتنتهي على كل حال، ولكن المصيبة إذا خرج الإنسان منها وليس معه دين يدين الله به.

ومعنى التعرف إلى الله في الرخاء يعني: أقبل على الله بالدعاء والعبادة بفعل العामور الذي أمرك الله جل وعلا به وزيادة من التواضع وغيرها لأنك بحاجة لذلك أشد الحاجة مادمت في عافية وحياة وصحة. وقوله: «يعرفك في الشدة» يعني أن الإنسان الذي يكون مديباً الإقبال على ربه وذكره وعبادته أنه إذا وقع في شدة فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً منها بخلاف الذي لا يعرف ربه إلا في الشدائد فهذا قد يجاب وقد لا يجاب.

وقوله: إذا استعنت فاستعن بالله، أي للأمور المهمة؛ لأن الاستعانة بعبادة، فيجب أن تكون خاصة بالله جل وعلا، كما قال جل وعلا: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ﴾
فحصر الاستعانة في الله جل وعلا.

• • •

وَدَلِيلُ الْأَشْيَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ الْغَلَقِ﴾ (الحق: ١٦).

الشرح:

والغلق يعني فلق الإصباح وتخليص الليل من النهار؛ لأنه لو شاء لجعل الوقت كله ليلاً ولو شاء لجعل الوقت كله نهاراً، قال الله جل

التي تعقد العقد ثم تنفت فيها فيتعقد السحر الذي تريده، وقال: ﴿أَتَشْكُرُنِي﴾ لأن أكثر السحر يقع من النساء، فتأتي بحبل ثم تعقد عقدة فتفت عليها بريقها النجس الخبيث المخلط بعبادة الشيطان والاستعانة به فيتعقد بإذن الله الكوني القدري ما أراده من أذى المسحور، وحله بالاستعانة بهذه الآيات الكريمة بإذن الله، لهذا لما سحر الرسول ﷺ استعاذ بهذه الآيات فك الله جل وعلا عنه سحره وهكذا إذا فعل الإنسان، وإن لم يكن في أول وهلة فهي المرة الثانية والثالثة والرابعة والتكرار.

• • •
 ﴿قُلْ أَغْوَى بِرَبِّ الْكَافِرِينَ﴾ (الناس: ١٦)

الشرح:

الرب هو المالك المتصرف، والناس عقلاء فلا يجوز أن يقال إن لهم رب إلا الله جل وعلا.

﴿مَلِكِ الْكَافِرِينَ﴾ (الناس: ١٦). يعني الذي يملكهم، فهو مالك لتواصيهم إذا أراد أن يتصرف فيهم تصرف فيهم كيف يشاء.

﴿إِنَّمَا الْكَافِرِينَ﴾ (الناس: ١٦). يعني ماكولهم الذي يأهلونه ويعبدونه، وهذا من الأدلة على أقسام التوحيد وأنه أقسام ثلاثة: توحيد العبادة «التأله» وتوحيد الربوبية «التصرف» وتوحيد الأسماء والصفات الذي هو قريب من توحيد الربوبية ولكنه يكون بأسماء، بأن يدعى بها وتثبت له بلا مشارك له فيها جل وعلا، فالمقصود الاستعانة به جل وعلا وأنها يجب أن تكون به فقط.

• • •

وَذَلِيلُ الْاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ فَلَسْتَبَاتُ لَكُمْ
أَنْ تُسَلِّمُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْأَمْسِ وَالنَّهَارِ﴾ (الأعداء: ١٩).

الشرح:

هذا منة عليهم، حيث ذكر فضله وأنهم استغاثوا بربهم وأنتى عليهم بذلك فدل على أنها عبادة، والاستغاثة هي نوع من الدعاء، ولكنها دعاء من مكروب وقع في كرب، طلب الغوث الذي هو إنجاء من وقع في الشدة وإخراجه منها، فيجب أن يكون ذلك خاصاً بالله جل وعلا.



وَذَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي مَهْدِيٌّ رَّبِّيَ رَبُّكُمْ فَتَسْتَشِيرُونَ رَبَّكُمْ﴾ (البقرة: ١٢٨).

الشرح:

والصلاة المقصود بها الركوع والسجود والدعاء ويدخل فيها غيرها من العبادة، والتسك يقصد بها الذبيحة التي تذبح لله مثل الأضحية والهدي والعقيقة وما أشبه ذلك أما التي تذبح لأكل لحمها فهذه تسمى نسكة لحم ومع ذلك لا بد أن يكون فيها عبادة ولا تكون محرمة، لا بد أن يسمي عليها عند ذبحها بأن يذكر اسم الله وأن تكون من مسلم، أما إن كانت من غير مسلم فهي محرمة وإن ذكر اسم الله عليها وقد أباح الله ذبيحة أهل الكتاب، وهذا من معاني قول الله جل وعلا ﴿وَقَرُّوا الْأَسْمَاءَ
الَّتِي دَعَوْا بِهَا﴾ (الأنعام: ١٠٠)، والذبيحة إذا ذبحت لمخلوق كالتي
تذبح عند القبر تعظيماً لصاحبه أو للمنجم أو للجن أو للكاهن وإن ذكر

اسم الله فهي شرك **أَهْلٌ** به لغير الله، وكذلك التي يذبحها النصارى للمسيح أو غيره فهي من الشرك الأكبر، والذبيحة لها أثر عظيم في القلب، يعني التسك، يتقرب بها إلى الله ولهذا قرنت بالصلاة في عدة آيات كما في قوله: ﴿عَلَّ يَدَاكَ سَلَامِينَ وَتَشَكَّى﴾ (الأنعام: ١١٦). فدل ذلك على أنها من أعظم العبادات، يجب أن تخلص له جل وعلا، فإذا وقعت لغير الله فهي شرك، وفي الآية الأخرى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَسِرْ﴾ (التكوير: ١٢). يعني اجعل الصلاة لله والنحية لله التي هي الذبيحة.



﴿وَحَيَاتٍ وَوَسَائِلَ بِلُؤْلُؤِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَكَ وَبَدَائِعَ أُفُوقٍ وَإِلَّا أَرْزَاقٍ

التكوير﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

الشرح

يعني العمل الذي أحيا عليه، وأني لم أخلق إلا لعبادة الله، فإن كل عمل أعمله في حياتي بعداً وتقرباً إلى الله جل وعلا، وكذلك أموت على الرجاء والخوف وعبادة ربي جل وعلا وأنتي راجع إليه أطلب جزاءه وأدعوه أن يرحمني وأن يعفو عني ويفضل علي، وهذا أمره جل وعلا لئيبه أن يقوله وأنت تبع له في ذلك.



وَمِنْ الشُّكْرِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»^(١).

(١) مسلم، (١٩٧٨) كتاب الأضاحي، باب يحرم الذبيحة لغير الله تعالى ولعن فاعله، والسنن، (٤١٢٢) كتاب الضحايا، باب من ذبح لغير الله عز وجل، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الألباني: صحيح، انظر حديث رقم (٥١١٢) في صحيح الجامع.

الشرح:

واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله جل وعلا، والله يلعن من يشاء من عباده حقيقة كما أنه يصلي على من يشاء من عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. يعني يصلي على المؤمنين، وصلاة الله معناها ثناءه على عبده عند الملائكة وهو القول الصواب فيها، أما الصلاة من الملائكة فهي الاستغفار والدعاء مثل: اللهم اغفر له وارحمه، وكذلك من الأدميين، فاللعن ضد ذلك، ومن لعن الله فقد بعد عن مضان الخير كلها، فالملعون هو البعيد عن الرحمة - نسال الله العافية - والله هو الحكيم العدل، إذا لعن فلعنه على من يستحق.



وَدَلِيلُ النَّفْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالَّذِي نُنَادُونَ بِرَبِّهِمْ وَأَقْرَبُ مِمَّا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ٥٧]

الشرح:

ووجه الدليل أن الله أتى على هؤلاء الذين يؤفون بالنفر ومدحهم، والله لا يشي على كثير النوم ولا على من يأكل كثيراً ولا على الذي يخرج بفرج ويشتره، يعني أنه لا يشي على الأمور المباحة؛ لأنها ليست عبادة وإنما يشي على من يفعل شيئاً يحبه الله جل وعلا، فدل هذا على أن الوفاء بالنفر عبادة، والنفر في أصله هو الإيجاب، يقال: نلوت دم فلان إذا أوجبت قتله، هكذا يقول العرب، وهو معروف في أشعارهم وكلامهم، وهو إيجاب عبادة لم تكن واجبة، بأن يوجب الإنسان على نفسه عبادة ليست واجبة، وهو في أصل إنشائه مكرهه لأن الرسول ﷺ يقول: «والنفر

لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من مال البخيل^(١). فلا ينبغي للعبد أن يدخل في التذور وهو لا يقدم ولا يؤخر، بعض الناس يتصور أنه إذا تذر شيئاً أنه يحصل له ذلك الشيء مثل أن يقول إن نجحت فلله علي أن أتبع بعيراً ويتصور أن يكون لهذا أثر في نجاحه، والواقع أنه لا أثر له، فإذا قدر الله النجاح فسبق تذر أو لم يتذر وإنما يوقع التذر الإنسان في حرج، وقد يوقعه في ذنب؛ لأنه إذا حصل له مطلوبه يتقل عليه الوفاء بالتذر وقد يعجز عنه فيكون أحملاً لأنه ترك شيئاً أوجهه على نفسه وهو عبادة، ولا بد أن تكون عبادة، أما إذا تذر أن يأكل شيئاً فهذا لا يوفي به؛ لأن هذا ليس بتذر عبادة أو تذر أن يصعد لذلك الجبل أو أن يذهب إلى البلد الفلاني فهذا لا يفي به لأنه ليس عبادة، وإنما التذر الذي يجب أن يوفي به ما كان عبادة كالبيع لله بأن يبيع ويوزعها على الفقراء أو يجهزها ويدعوهم لها ليأكلوها فهذا يجب الوفاء به، فالمقصود أن التافر يتصور أنه إذا تذر لله إذا شفى مريضه أن يتصدق بكذا وكذا أو أن يصوم كذا وكذا أو أن يبيع كذا وكذا وأن ذلك له أثر في شفاء مريضه والصحيح أنه لا أثر له؛ لأن الله سيوقع ما قدره، فالتذر لا يأتي بخير كما قال الرسول ﷺ فلا ينبغي للإنسان أن يفعله، ولكن إذا وقع منه وجب عليه الوفاء به، فله يشي على عباده الذين إذا وقعت منهم التذور وسارعوا إلى الوفاء بها.

قوله: ﴿سَتَجِدُنِي أَوْ كَذَّبْتُمْ مِنْ كَذَّبَتْكُمْ اللَّهُ بِسُلْمَةٍ﴾ (البقرة: ٢٧٠)، يعني إن الله سبحانه يكم عليه.

(١) «البخاري» (١٦٠٨) كتاب الفقرة، باب إلقاء العبد التذر إلى القدر، ومسلمه (١٦٣٩) كتاب التذر، باب النبي عن التذر وأنه لا يرد شيئاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما صححه الألباني في «التلخيص الطحاوي».

«الأصل الثاني»

معرفة دين الإسلام

الشرح

ومعرفة الدين الإسلامي متوقفة على مجيء الرسول ﷺ، فلا بد من بيان الرسول ﷺ، والرسول ﷺ جاء بالقرآن الذي أنزله الله عليه، وكذلك بالوحي الذي أوحاه الله إليه من غير القرآن أي السنة، فهي تبين القرآن وتوضحه، والأمر في هذا واضح جداً ولهذا اقتصر على شيء يسير جداً من الأدلة التي من الكتاب والسنة، ومعرفة أصل الدين يلزم أن يكون بالدليل ولا يجوز أن يكون بالتقليد والعادة التي يعتادها الناس، فإذا كان تدين الإنسان بالعادة التي وجد الناس عليها بأن ينظر إلى الناس ويصنع مثلما صنعوا فهذا هو التقليد، فهذا يخاف عليه أن يخرج من الدين الإسلامي ويخاف عليه أنه إذا سئل في القبر تلثم وقال: هاه.. هاه.. لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، ورأيتهم يصنعون شيئاً فصنعته، فيقال له: ما دريت ولا تليت، يعني ما علمت بلا تعلم؛ لأن الإنسان قد يعلم أمراً ظاهراً، كأن يعلم أن الصلاة واجبة، وكذلك يعلم كيف يتوضأ وكيف يؤدي زكاة ماله إذا كان عنده مال، وهكذا. فهذه أمور سهلة حتى لو أخذها بالتلقي كفى ولو لم يكن متعلماً، ولهذا يقولون له: ما دريت أي ما علمت، وقولهم: ولا تليت أي ما تلوت كتاب الله وقرأته وتعلمت ذلك حتى تكون على يقين وعلى معرفة وعلى برهان ولذلك يعذب - نسال الله العافية - منقصوده أنه لا بد من الدليل لمعرفة الدين الإسلامي الذي يلزمك.

بِالْأَوَّلِيَّةِ.

الشَّرح.

والأدلة هي القولية والخلقية والفعلية، فأما الأدلة القولية فهي مثل آيات الله جل وعلا التي أنزلها على رسوله ﷺ فهي آيات واضحة ودالة على وجوب عبادته وتدل أيضاً على امتثال أمره واجتناب نهيهِ وهذا هو الدين، أما الأدلة الخلقية فهي كثيرة جداً في الأنفس وفي الأفاق وفي ما يحدثه الله جل وعلا من الرياح والسحاب والأمطار والإحياء والإماتة وغير ذلك، وقد ذكر الله جل وعلا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس يعني أن القادر على الخلق الكبير العظيم لا يعجزه الصغير الحفير، وأخبر الله جل وعلا فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [صافات: ٣٧]. أما الأدلة الفعلية التي يفعلها الله جل وعلا فهي مثل الآيات التي يأتي بها الرسل والتي تكون عارقة للمعادة التي يعتاد الناس عليها فهي أيضاً تكون آيات لوجوب عبادة الله جل وعلا والأخذ عن الرسل وأنهم جاءوا من عند الله جل وعلا، وهي كثيرة جداً لرسولنا ﷺ، أو أن يعرف الإنسان دينه، وهو داخل في معرفة الله جل وعلا، لأن معرفة بلا تدبير لا فائدة فيها ولا بد أن يكون الإنسان عارفاً ربه ليعبده، ولكن عبادة الله جل وعلا تنوقف على أمره، فلهذا احتجنا أن نعرف الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ.

وَقَوْلُ: الْأَسْتِغْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ،

الشرح:

الاستسلام: معناه الانقياد وعدم الإياء أو التضجر، وذلك بأن يتقاد لأمر الله جل وعلا مطيعاً مذعناً منتلاً، لأنه عبد لله جل وعلا ولا خيار له في ذلك، فلا يترك ما أمر به ويفعل ما نهي عنه، ويقال: استسلم إذا صار مذعناً ليس لديه مقاومة ولا مدافعة بل يكون متقاداً مذعناً خاضعاً، ولا يكون هذا الانقياد بالبدن أو بالمال أو بغير ذلك بل بالتوحيد، استسلم لله يعني انقاد له بالطاعة وأصبح يتطلب ويتعرف أمر الله حتى يمتلك طاعة الله جل وعلا ويكون موحداً في ذلك يعني مخلصاً في هذه الطاعة.



وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ،

الشرح:

وهذا تفسير للاستسلام، وانقاد بعدم الامتناع، ومعروف أن البعير إذا وضع في رأسه حبل ثم قيد فإنه يتقاد ويتبع من يمسك بالحبل حتى لو كان طفلاً صغيراً، فيتقاد معه، فالانقياد مأخوذ من هذا، والآن يقال: تقود السيارة، يعني تُصرفها وتُسيرها، فالسيارة تكون بيدك وتُصرفها كيف تشاء، فهذا الانقياد وهو ألا يكون عنده أي منازعة وأي تأني بل يكون مطيعاً ولا يكفي هذا بل يجب أن يكون عنده رغبة ومحبة وغبطة، فيغبط بأنه مسلم وأنه مطيع لله ويرى أن هذا من النعم الكبيرة التي لا يوزيها نعمته، ولهذا أمر الله جل وعلا بالفرح بذلك في قوله: ﴿قُلْ يَقْنُتُ لَكُمُ

وَيَرْحَمُوهُ. قَدْ ذَكَرْنَا قَبْلَهُمْ أَنَّ هُوَ خَيْرٌ مِنَّا يَجْتَمِعُونَ ﴿ (ابن سينا: ١٥٨). هذا فضل
 ورحمة فيفرح الإنسان به، ولا سيما إذا نظر إلى الأرض فهي مملوءة
 بالناس الذين لهم عقول ولهم أفكار ولكن ما اعتدوا إلى هذا الخير
 العظيم، فلم تهدهم عقولهم ولا أفكارهم بل هم كفرة يأكلون ويشربون
 ويتمتعون كما تأكل الحيوانات ثم مصيرهم إلى النار - نسأل الله العافية -
 فالانقياد يكون بالطاعة ولا بد فيه من المحبة والرغبة.



وَالْبِرَاءَةُ

الشرح

في بعض النسخ الخلوص من الشرك وليس البراءة والمعنى واحد
 لأن خلوص معناه أنه ابتعد عن ذلك ومع الابتعاد فلا بد أن يكون معادٍ له،
 والبراءة بأن لا يكون عنده أي تعلق لهؤلاء بل يُسبغ البراءة بالبخس
 والكراهة والمعادلة والقتال لأنهم أعداء الله، ويجب أن تعادي عدو
 حبيبك ومعبودك أما أن تصافيه وتحبه فهذا من المناقضات، فلا يمكن أن
 تحب أعداء الله وأنت تدعي حبه جل وعلا، فهذا مستحيل وإن وجد فهو
 كذب من المذمعي.



مِنَ الشُّرُوكِ

الشرح

يعني عبادة غير الله جل وعلا، وعبادة غير الله أقسام كثيرة وتتفرع
 بتفرع ظروف الناس وعاداتهم وما يُعبدُ لهم، ففي الأول كان الشرك

بأصنام وبأشجار وبالملائكة وبالشمس والقمر وبالجن وغير ذلك أما اليوم فصار الشرك بأمور أخرى: في الشهوات والرغاسات واللعب حتى يصحح الإنسان ربما يكون معبوده ملعونه، فمثلاً قد تستولي عليه لعبة من اللعب وينسى الله وينسى العبادة وينسى كل شيء، فهذه عبادة ويدلك على هذا قول الرسول ﷺ: «نعمس عبد الدينار، نعمس عبد الدرهم، نعمس عبد الخميصة، نعمس عبد الخميصة»^(١)، فالدينار قطعة ذهب، والدرهم قطعة فضة، والخميصة والخميصة الأول كساء بلبس والأخر فراش يوطىء، ومعناه أنه يعمل لهذه الأشياء، ولهذا قال: «إذا أعطى رهي وإذا منع سخط» فجعله عبداً وليس معنى ذلك أنه يسجد للدينار والدرهم أو يركع له بل معناه أنه يتعلق قلبه به ويعمل من أجله، فحد العبودية أن يكون قلبك وقابلك لله.

سؤال: ماذا عن اللعب؟

الجواب: اللعب هو مثل ما ترى من لاعبين الكرة، تمر عليهم الأوقات كلها ولا يبالون بشيء وكأنه ليس هناك أوقات محددة لتصلي الصلوات فيها، لأن هذا الشيء قد استولى عليهم.



وَأَقْبِلُوهُ،

الشرح،

وذلك بأن يكون مخلصاً في طاعة الله جل وعلا خوفاً من عذابه

(١) البخاري (٢٨٨٦) كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ابن ماجه

(١٢٥) كتاب الزهد، باب في المكتوبين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورجاء لتوبته ومع ذلك يجنب الشرك ويتعد عنه، وفي آيات كثيرة جداً يخبر الله جل وعلا أن الإيمان لا يوجد مع موادة الكافرين ودل ذلك على أنه لا بد من البراءة من المشركين، وقد أمرنا جل وعلا أن ننأس بنبيه وعليهِ إبراهيم في قوله جل وعلا: ﴿فَإِذْ كُنَّا لَكُمْ أَسْرًا حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالْيُوسُفَ وَمَعَادٍ قَالُوا اقْرَبِيهِمْ إِنَّ بَرَكَاتِهِمْ عَلَيْكُمْ وَمَا نَسْتَعِينُ مِنْ شَرِّ مَا كُنَّا بِكُمْ عَنِيبًا وَمَنْ يُضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ﴾ (النسمة: 1)، ثم استثنى جل وعلا من الناس دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿أَلَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتغْفِرَ لَكَ﴾ (النسمة: 1) يعني أن هذا لا نأسي فيه ولا يجوز أن يدعو المسلم للكافر، والبراءة أن يتراء من أفعالهم ومن مودتهم ومتابعهم ويكون معادياً لهم مبعضاً لهم كارهاً لهم، لأنه لا يمكن أن يكون العبد مطيعاً لله ومحباً له ويكون مطيعاً للكفار وموالياً لهم، هذا مستنع، كما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (النسمة: 27)، ثم أتى على الصحابة الذين تبرؤوا من أقربائهم بل بعضهم حاول قتله وبعضهم قتله لأنه كافر، قال: ﴿لَوْلَا نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (النسمة: 27) ويشددهم بروح الله ويذلهم حتى يفر من قبيح الأكلهم خبيثون فيصالحهم الله عنهم ويؤمروا الله لولا نعمة الله عليك جزب الله عنهم القلوب ﴿(النسمة: 27) وتوقف الشهادة التي كلف الإنسان بها والتي لا خلاص له من عذاب الله إلا بها على البراءة لأن الشهادة بنيت على ركبتين هما: النفي والإتيان، فالنفي يدخل فيه البراءة من الشرك والابعد، أما الإتيان

فلا بد أن يكون مخلصاً لله جل وعلا.

وَمَوْ قَلَاتٌ مَّرَاتِبٌ: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكل مرتبة لها
أركان.

الشرح:

أي أن الدين الإسلامي ثلاث مراتب، وكل مرتبة أرفع من التي قبلها، فالإسلام هو أوسعها؛ لأن الإنسان قد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً إيماناً ينجو به من كل عذاب وقد يكون مؤمناً ولا يكون محسناً، وهذا كثير جداً، فأرفعها وأعلىها الإحسان وأولها الإسلام، أما إسلام بلا إيمان هذا لا يوجد، لا بد أن يكون في قلبه تصديق للرسول ﷺ ولربه جل وعلا، والإحسان أضيّق مما قبله ومعنى ذلك أن الإنسان إذا كان محسناً فلا بد أنه مؤمن مسلم، وإذا كان مؤمناً فلا بد أنه مسلم، ولكن قد يكون مؤمناً ولا يكون محسناً، وقد يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً الإيمان الواجب كما قال الله جل وعلا: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِنَّا أَوْلَىٰ بِالْإِيمَانِ مِنِّيهِمْ لَمَّا كَانُوا مِنَّا وَلَٰكِن قَوْلُوا أَنَّا نَحْنُ الْمُحْسِنُونَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وليس هؤلاء منافقون بل هؤلاء انفادوا في أول الأمر ولما يتمكن الإيمان من قلوبهم ويدخل فيه، فأذعوا أنهم مؤمنين، فضى الله جل وعلا ذلك عنهم ثم قال بعد هذا: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَقْوَامِهِمْ وَرَسُولِهِمْ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَخَفَعُوا لِمَ أُوْحِيَ إِلَيْهِمْ وَانفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]. وفرق الله جل وعلا بين الإيمان والإسلام في آيات عدة وهذا يدل على أن هناك فرق بين الإيمان والإسلام فقال: ﴿ إِنَّ

التَّائِبِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿ الأحراب: ٣٥ ﴾ . وقال:
 ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَبْتُكَ أَنْ تَبْدُلَهُ أَلِيفًا حَبِيبًا يُنَادِيكَ مُؤْمِنًا قَدْ آمَنَ فَبَسِّطِي فَيْدَنِّي بِحَبْلِكَ خَشِيكَ فَنِعْمَ بِكَ مُصَوِّبًا مِّنْ رَبِّكَ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْحِسَابِ﴾ (التصريح: ٤) . فإذا جاء أحدهما مفرداً أدخل فيه
 الآخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبُيُوتَ لَبَنَاتٍ لِّمَن تَبَنَّىٰ﴾ (آل عمران: ١١٩) . فهذا
 يدخل فيه الدين كله، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عِزًّا إِلَيْكُمْ وَيَكُنْ
 يُقْبَلُ بِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٥) . فهذا يدخل فيه الإسلام والإيمان، أما إذا اقترن
 أحدهما بالآخر فإن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة كما فسرهُ الرسول
 ﷺ، والإيمان يفسر بالأعمال الباطنة كما فسرهُ به رسول الله ﷺ كما في
 حديث جبريل الأتي، فإنه فسر الإسلام بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحرم رمضان وحج بيت الله الحرام
 كما ذكر المؤلف هنا.

المرتبة الأولى: الإسلام.

فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ:

الشرح:

الركن هو الذي يُعتمد عليه ويبني عليه الشيء ويقوم عليه، فأركان
 البيت التي يقوم عليها والأعمدة التي يبني عليها، فإذا سقط الركن لا
 ينفع البناء ولا يستقر بل يسقط.

شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

الشرح.

وأصل الشهادة هو أن يخبر عما في قلبه عاملاً به عالمًا به وإلا لو أخبر غير معتقد له صار كاذباً؛ لأن الله جل وعلا أخبرنا عن المنافقين لما جازوا يقولون: ﴿شَهِدُوا بِكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَلَّهُ يَعْلَمُ بِكَ رَسُولُهُ وَأَلَّهُ يَقْتُهِدُ الْأُنْفِيَّةَ لِلْكَذِبِ﴾ (المنافقون: ١). يعني في شهادتهم لأنه كلام بألسنتهم والكلام باللسان لا يرفع لأنه لا يد أن تكون الشهادة عن علم وعمل، وهذه الشهادة هي أصل الدين الإسلامي وهي تضمن كل ما جاء به الرسول؛ لأن معنى لا إله إلا الله يعني: لا آله وأُعيد إلا الله، ولا تكون العبادة إلا بأمر الله الذي جاء به الرسول، فهي تضمنت الدين كله، ولهذا قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(١). يعني بحق لا إله إلا الله، من هذا فهم الصحابة أن منع الزكاة يقاتل عليه وأنه كفر، فأجمعوا على قتالهم وكفروهم مستدلين بقوله ﷺ: «إلا بحقها» حتى قال أبو بكر: «والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤذونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه»^(٢)؛ لأن ذلك من حق لا إله إلا الله، والعقل هو الجبل الذي يربط به يد البعير إذا برك

(١) البخاري (٧٢٨٥) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاعتقاد بسنن رسول الله ﷺ.

(٢) الترمذي (٢٦٠٦) كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: صحيح متواتر.

(٣) البخاري (٧٢١١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاعتقاد بسنن رسول الله، مسلم

(٤) كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حتى لا يذهب، يقال: عقله إذا أمسك يده بالحبل، وجاء في رواية: لو
 منعوني عنافاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم عليها^(١).
 ولا بد للمسلم أن يكون قد عرف هذه الأركان وأتى بها على وجه
 الامتثال للأمر وعلى وجه مخصوص حيث بينها رسول الله ﷺ ووضحها
 لنا وأخبر أن معنى شهادة أن لا إله إلا الله نفي الألوهية عن غير الله،
 والألوهية معناها تآله القلب وحبه وخضوعه وذله للإله، فنقول: لا إله إلا
 الله معناه النفي بأنه لا إله، وقوله: إلا الله إثبات الإلهية لله وحده، وبهذا
 النفي والإثبات يكون الإنسان مخلصاً، ويجب أن يكون العلم والاعتقاد
 موافقاً لهذا النفي وكذلك يعمل بذلك فإذا أدى العبادة تكون لله وحده
 ولا يجوز أن يكون فيها شيء لغيره لا من حفظ النفس ولا من
 المخلوقات ولا من غيرها، والنقص الذي دخل على كثير من المسلمين
 هو عدم معرفتهم معنى الإله ومعنى العبادة، فهم يقولون: لا إله إلا الله
 ويعبدون غير الله فلم يفهموا ذلك وهذا بخلاف ما كانت عليه الكفار من
 قريش وغيرها، فإنهم لما قال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله»
 أبوا. قالوا: ﴿لَجَعَلْنَا آلِهَةً إِلَهاً وَمَسْجِدًا يُدْعَى اسْمَهُ فَتُخَذَ بِهَا عَصَافٌ وَأَسَافٌ﴾ لأن عندهم
 آلهة متعددة مثل اللات والعزى ومناة وهبل وأساف وثالثة وغيرها من
 أصنامهم الكثيرة وكلها يسمونها آلهة، وتسميتها آلهة كذب تواضعوا عليه
 ليس لها من الإلهية شيء، ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ مِنْ آلِهَتِهِمْ تَشْبُهًا

(١) البخاري (١٧٣١٢) كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة السنائي (٣٠٤٠) كتاب الجهاد، باب

وجوب الجهاد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنْتُمْ وَمَكَانُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿١٢٣﴾ (النجم: ١٢٣). يعني ما أنزل بها حجة أو برهان تعتمدون عليه، بل هو أمر تواضعتم عليه واتبعتم عليه آباءكم، وإلا فهي ليست آلهة، وكيف تكون الشجرة آلهة والحجر آلهة والميت آلهة أو الجنى أو غيره من المخلوقات؟ هذه المعبودات عباد أمثالكم فكيف تعبدون أمثالكم؟ وهم لا يضعون ولا يضرون، ولكن التقليد والأوضاع التي يعيش فيها الإنسان قد يصعب عليه مفارقتها كثيراً ولا سيما إذا كان له معظمين مروا عليها مثلما كانت الكفار تقول له لما قال رسول الله لهم: إن هذه لا تضر ولا تنفع. جعلوا هذه سبباً، وقال لهم: آباؤكم الذين مضوا يعبدون هذه الأصنام ليسوا على شيء. قالوا: إن هذا سب لألهتنا وشتم لأبائنا. ورسول الله ﷺ ليس سبباً ولا شتاً وإنما يدعو إلى توحيد الله جل وعلا وعبادته وحده، فالمقصود أن تسمية مخلوق من المخلوقات آلهة أنه كذب وزور وبهتان فالآلهة هي التي يألفها القلب ويعبدها وهذا لا يصلح إلا لله جل وعلا وحده، ولهذا صارت هذه الكلمة عظيمة وهي كلمة الإخلاص وهي التي يدخل بها الكافر الإسلام ولا يصح إسلامه إلا بقولها، ولهذا قال علماء أهل السنة: الإيمان يتكون من قول وعلم وعمل، فالقول أن تقول: لا إله إلا الله، والعلم أن تعلم معناها وما دلت عليه، والعمل بأن تعمل بما دلت عليه وما تقتضيه وهو أن يكون التأله لله وحده جل وعلا.

وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،

الشرح:

وقد بين معناها قال: هي طاعته فيما أمر مع اعتقاد أنه رسول أرسله

الله جل وعلا وكلفه بالرسالة، ولكنه ليس إله يُعبد بل هو مكلف بإبلاغ الرسالة وأكرمه الله جل وعلا بذلك ورفع منزلته فوق الناس برسالته وقام بالأمر الذي كلفه الله جل وعلا به فصار من أعلى الناس منزلة عند الله جل وعلا وأمر بتوقيره ومحبة بل أن يُحَبَّ أكثر من محبة النفس كما جاء في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»^(١). وفي رواية: «ومن نفسه»، قال عمر: والله يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «لا حتى أكون أحب إليك من نفسك». قال: أنت الآن أحب إليّ من نفسي. فقال: «الآن»^(٢) أي الآن وصلت الواجب الذي لا بد منه، ولا يجوز أن تخلط محبة الرسول ﷺ بمحبة الله؛ لأن محبة الله محبة عبادة وذل وخضوع، أما محبة الرسول فهي تبع لمحبة الله، فتحبه لأن الله يحبه، ولأن الله أمرنا بحبه، فهي محبة تكون تابعة، ولهذا نقول: محبة الرسول لله وفي الله وليست مع الله؛ لأن المحبة مع الله شركاً لأن «مع» تقتضي التشريك فمحبة الله شيء ومحبة الرسول شيء آخر، فلا يوجد في الخلق كلهم شيء يحب لذاته إلا الله جل وعلا وما عداه فيحب لأفعاله وأوصافه التي يتصف بها، فالإنسان لحم ودم وعظام فإذا كان من صفاته أنه مطيع لله ولرسوله فتحبه لله وإذا كان بخلاف ذلك تبغضه سواء كان قريباً أو بعيداً، فكثير من الناس يلتبس

(١) البخاري (١٥) كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، مسلم (٤٤) كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والنساء من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٦٣٢) كتاب الإيمان والتطور، باب كيف كانت بعين النبي ﷺ، أحمد (٦٦٥٥٦).

عليه هذا الأمر وينع في الشرك، فلا بد أن يتيقن الإنسان بقلبه يقيناً أنه رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق وأوحى إليه أمره الذي بلغه عباده، وأن الله جل وعلا لا يعبد إلا بالشرع الذي جاء به وأنه ﷺ بشر ليس نوراً ولا ملكاً بل هو بشر خصّه الله بالرسالة، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (المائدة: ١٦). فتتميز عنا بالوحي وبأن الله أكرمته بالرسالة وهي أعلى مقام يمكن أن يناله البشر بتفضل الله جل وعلا به على من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم لا بد من محبته ﷺ حياً أكثر من حب الإنسان لنفسه ولولده ولوالده، وتكون هذه المحبة لله وفي الله، فتحبه لأن الله يحبه ولأن الله أمرك بحبه، ثم علامة محبته أن تطيعه كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). فلا بد من اتباع الرسول ﷺ لعمى يكون يحبه، أما أن يدعي حبه وهو يخالف أمره ويرتكب نهييه فهذه دعوى ولا بد لها من برهان وإلا لا تقبل، ومعناها الذي يجب أن يكون المسلم عارفاً به أنه رسول تفضل الله جل وعلا بإكرامه وأكرمه وأوحى إليه شرعه وأن الله لا يعبد إلا بالشرع الذي جاء به وأنه ﷺ يُطاع ويُسمع ولا يُعصى أمره ولا يُرتكب نهييه ﷺ وأنه بلغ ما أمره الله ببلاغه.

ولما كانت عبادة الله جل وعلا متوقفة على محبة النص بأمره ونهييه صارت شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ركناً واحداً، فلو شهد الإنسان أنه لا إله إلا الله ولكنه لم يشهد أن محمداً عبد الله ورسوله فإنه لا يكون مسلماً، فلا بد أن تفتن شهادة أن لا إله إلا الله بأن محمداً رسول الله.

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

الشرح:

وجاء بلفظ الإقامة بل كلما ورد الأمر بالصلاة فإنه يأتي بهذا اللفظ،
فالتصوص التي جاءت كلها تكون بلفظ الإقامة ولا بد أن يتأمل الإنسان
معنى الإقامة وهي أن تكون الصلاة قائمة وليست معوجة ولا ناقصة
وقيامها أن يأتي بها الإنسان على الوجه الذي أمر به، بأن يأتي بأركانها
وشروطها وواجباتها، أما السنن فلا يأتي من يتركها وإنما يأتي بترك
الشرط لأن الشرط لا يصح المشروط إلا به، مثل الطهارة واستقبال القبلة
وستر العورة والثنية ومن أركانها مثل القيام والركوع والسجود وهكذا،
أما السنن فالإتيان بها أفضل، ومن أعظم ما يجب فيها هو حضور القلب
لأنه جاء في الحديث أنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما عقل^(١)،
وحضور القلب هو أن يعرف الإنسان أنه قام بين يدي الله وأنه يؤدي
الصلاة وأنه يكبر ويقرأ ويتأمل حالته ويحتمد في أن يخشع لله، والخشوع
الذي هو فعل القلب، هذا ليس فرضاً ولا واجباً ولكنه فضيل وأتى الله
جل وعلا على الخاشعين في الصلاة، والصلاة المقصود بها الصلوات
الخمسة التي فرضها الله في كل يوم وليلة لا يجب على الإنسان من
الصلاة إلا هي كما جاء في حديث معاذ حينما بعث الرسول ﷺ إلى اليمن
وبعث في السنة العاشرة من الهجرة التي توفي فيها الرسول ﷺ فإنه قال:
«إنك ستأتي قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا
إله إلا الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك فأعلمهم أن الله كتب عليهم في كل

(١) تشرح أحاديث الإحياء.

يوم وليلة خمس صلوات^(١١). ولم يذكر غيرها كالوتر والرواتب وغيرها فهذا هو المتعين على الإنسان وأما غيرها كالوتر والسنن الرواتب ليست واجبة ولكن يثاب عليها الإنسان، وهذا لا يدعو الإنسان أن لا يكثر من الصلاة، بل ينبغي أن يكثر من الصلاة لأنها صلة للعبد بربه، والرسول ﷺ لما سأله رجل مرافقته في الجنة وكان يخدمه ويقدم له الوضوء وغير ذلك ففي يوم من الأيام قال له: «سل». قال: سألتك مرافقتك في الجنة. قال: «لأوفير ذلك» قال: هو ذلك. قال: «إذن أعني على نفسك بكثرة السجود»^(١٢) فكثرة السجود معناها كثرة الصلاة، وقد أتى الله جل وعلا على المصلين وعلى الخاشعين في صلاتهم، والمقصود أن الركن الثاني من أركان الإسلام هو الصلاة وأنه جاء بإقامتها، فينبغي للإنسان أن يعتني بها وأن يأتي بها على الوجه الذي تبرا ذمته في أدائها لله جل وعلا، وقد جاء الوعيد على من كان يهمل صلاته ولا يدري هل هو في المسجد بين يدي الله أو في السوق يبيع ويشترى ولهذا إذا كان الإنسان مهملًا في صلاته ولا يدري ماذا صلى ولا يدري ماذا تكلم به ولا يدري ماذا قرأ تلف الصلاة كما تلف الثوب الخلق ويضرب بها وجهه وتقول: ضيعت الله كما ضيعت^(١٣)، أما إذا كان محافظاً عليها وعلى أركانها وشروطها

(١١) سبق شرحه.

(١٢) مصنف (٤٨٩) كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، «السنن» (١١٣٨) كتاب التطبيق، باب فضل السجود، من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه. قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٤١٠٠) في «صحيح الجامع».

(١٣) مصنف عبدالرزاق، والطبراني في «المعجم الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

وواجباتها فإنها تصعد إلى الله جل وعلا ولها نور وتقول: حفظك الله كما حفظني، ثم جاء أن الإنسان إذا كان مقصراً في صلاته أن الله يقول لسائلته: «انظروا هل له تطوع»^(١) يعني صلاة، فيكمل الواجب من تطوعه، ولهذا ينبغي أن يكثر الإنسان من التطوع.



وَأَيُّهَا الزُّكَاةُ،

الشرح:

وأدائها يعني وضعها حيث أمر الله جل وعلا أن توضع، وقد أمر الله جل وعلا أن تكون للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وهذه الأصناف التي يجب أن تؤدي الزكاة إليهم ولو أدت إلى صنف واحد منهم لكفى.

ويبدأ بالفقراء لأنهم أكثر حاجة من المساكين، ولأن الله جل وعلا لما ذكر قصة موسى عليه السلام مع الخضر وأخبر أن المساكين لهم سفينة قال: ﴿أَمْثَلُ الشُّبُهَةِ مَكَاتٍ لِمَسْكِينٍ يَمْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ (التكوير: ١٧٩). مساكين وعندهم سفينة يعملون عليها، ولهذا يقول الفقهاء: الفقراء أكثر حاجة من المساكين، ويعرفون أن الفقير هو الذي لا يجد كفايته في السنة والمسكين من يجد بعضها، لهذه الآية ونحوها، ولأن الله بدأ بهم والله يبدأ بما هو أولى أن توضع له الزكاة كما في غير هذا الموضع كما قال

(١) مسنن الترمذي (١/١٣٧) كتاب الصلاة باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة

الصلاة والسنة (١/١٦٥) كتاب الصلاة باب المحاسبة على الصلاة، من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه.

الرسول ﷺ حينما بدء بالطواف قال: فبدأ بما بدأ الله به ﴿لِيَاكْفُرُوا لِي وَاللَّهُ يَهْتَدِي لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١). وإذا أدبت إلى الإمام كفى ويكون هو الذي يتولها ويضعها مواضعها، ولا بد أن يخرجها طيبة نفسه بها يرجو ثواب الله جل وعلا ويخاف عقابه لو منعها، والزكاة تكون من أصناف الأموال كل مال زكاته منه فالنقود زكاتها منها والحبوب زكاتها منها أي من نفس الحبوب وكذلك الثمار مثل التمر فزكاته منه، حتى لو باع الإنسان نخله برؤوسه فيخرج الزكاة ثمراً حتى لو يشتره بالطريقة في مثل هذا أنه يخرقها إذا استوت وهي في رؤوسها ثم يعلم قدرها ويؤدي الزكاة، وتفصيل الزكاة معروفة في كتب الفقه.



وَصَوْمُ رَمَضَانَ،

الشرح:

ومعنى الصيام: الإمساك، يقال: صام النهار إذا تحيل أن الشمس وقتت، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات سواء المأكولات والمشروبات أو من غيرها التي تفسد الصوم كالإتصال بالزوجة وما أشبه ذلك ويكون ذلك من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، والواجب هو صوم شهر رمضان فقط إلا أن ينذر الإنسان صوماً فيجب عليه أن يفي

(١) مسلم (١٢١٨) كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، مسند الترمذي (٨٦٢) كتاب الحج، باب ما جاء أنه بدأ بالصفا قبل المروة، من حديث جابر رضي الله عنه.

بنزله، لقول الرسول ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»⁽¹¹⁾.

• • •

وَعَجَّ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ

الشرح:

والحج في اللغة: القصد، وفي الشرع: هو قصد بيت الله الحرام في وقت معلوم محدد وهي أشهر الحج لأداء المناسك التي أمر الله جل وعلا بها وبينها الرسول ﷺ بفعله وقوله ﷺ، والحج لا يجب على المسلم إلا مرة واحدة في عمره كله، فإذا أداه مرة سقط الواجب عنه ويبقى التطوع إذا شاء، والله جل وعلا يتدب عباده إلى الخيرات والتسليم فيها؛ لأنه بالأعمال تقسم درجات الجنة، فهذه أركان الإسلام التي لا بد من فعلها ولا يجوز ترك شيء منها.

• • •

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ لَكَ إِلاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالشَّيْئَةُ

وَأَدُلُّوا عَلَيْهَا قَالُوا بِاللَّسْوَةِ الْاِلاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّبُّ الْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران: 17).

الشرح:

هذه جزئية بسيطة وإلا فأدلة الشهادة كثيرة جداً، ويكفي الإنسان في دينه أن يعرف دليلاً من الأدلة، فإن كثرت الأدلة فهذا خير، شهادة ألا إله إلا الله أن تكون عن علم ويقين ومعرفة وأن يكون

(11) البخاري (٦٦٦) كتاب الأيمان والتلويح، باب الشكر في الطاعة، مسند الرمزي

(١٥٢٦) كتاب التطور والأيمان، باب من نذر أن يطيع الله فليطعه، من حديث عائشة وهي

الله عبادة، قال الألباني: صحيح، النظر حديث رقم (٦٥٦٥) في صحيح الجامع.

عاملاً بها، وقد ذكر لها ثمانية شروط، ومعنى شروطها أي أنها لا تنفع إلا إذا اجتمعت هذه الشروط وهي:

الأول: العلم المنافي للجهل: وهو أن تعلم معناها ولا يجوز للإنسان أن يكون جاهلاً بهذا، ولهذا تجد الجاهل بمعناها يأتي بما يناقضها وهو يقولها، مثل الذي يأتي إلى القير ويستجد بصاحبه ويظوف حوله ويدعوه وهو يقول: لا إله إلا الله، فهذا تناقض فلو عرف معنى لا إله إلا الله ما فعل هذه الأفعال؛ لأن لا إله إلا الله تنافي ذلك، فكل عبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده.

الثاني: اليقين المنافي للشك، ولكن هذا قد يشكل على بعض الناس، فيقال: كيف تقولون العلم ثم تقولون اليقين؟ أليس اليقين داخل في العلم؟

الجواب: إن المقصود ليس مجرد الاستدلال بعلم ذلك بل لا بد أن يتحلى به ويتيقنه، وإن كان داخل في الأول إلا أنه إيضاح وبيان؛ لأن العلم في هذا لا بد أن يكون يقيناً لا يقبل التردد والشك، حتى إذا شكك الإنسان لا يشك.

الثالث: القبول، وهو أن يقبل هذه الكلمة ومعناها ولا يرد شيئاً منها ولا من حقوقها.

الرابع: الاتقياء، ويقابله التأيي وعدم الاستسلام.

الخامس: الصديق المنافي للضفاق؛ لأن المناق يقول لا إله إلا الله وهو كاذب، فلا بد أن يكون صادقاً في قولها ولا يكون كاذباً؛ لأن الكذب من الضفاق.

السادس: المحبة، بأن يحبها ويغضب بها كما قال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِنَّكَ لَتَشْكُرُونَ ﴿١٠٨﴾ (يونس: ١٠٨). يعني أنه يرى أنه غنم مغنمة عظيمة لكونه صار من أهل لا إله إلا الله.

السابع: الإخلاص، ويتألف الرياء بأن يكون العمل لله وحده خالياً من الرياء لئلا يبطل العمل.

الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله.



وَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَأَنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ ﴿١٠٩﴾ (البقرة: ١٠٩).

الشرح:

قال: «يعلم» حتى تكون المعبروات كلها باطلة.



وَأَخَذَ النَّبِيُّ مِنَ الْإِبْرَاهِيمَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ نَائِباً جَمِيعاً تَابِعَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

الشرح:

لأن «لا» نافية للجنس، والجنس كقولك: رجل أو امرأة أو شجرة أو بقرة، فلو قلت: رجل فأنت لا تعني رجلاً معيناً بل هو يشمل كل من كان بهذا الاسم، وإذا قلت: امرأة، فهو يشمل جميع النساء، فكلمة امرأة يجوز أن يطلق عليها هذا، كذلك شجرة وبقرة وما أشبه ذلك، فهذه تسمى أسماء جنس، ومعنى جنس أنه شائع وليس معين ويصح أن يطلق على أي نوع من هذه الأنواع، بخلاف إذا قلت: الرجل. فأنت عيّنت لأنك جئت بألم وهي تكون إما للتعريف وإما للعهد؛ لأنه معهود عندك وعرفته، فهنا

قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا﴾، وإله اسم جنس ومعناه أنه شائع ويصح أن يكون كل ماؤه سواء كان شجرة أو صنم أو قبر أو جني أو شمس أو قمر أو غيرها، ويقول العلماء: إن هذا التقييد الذي جاء هنا يسمى حصراً، فـ«لا» تدخل إلا على الأجناس وهي تعمل عمل إن، وإن تدخل على المبتدأ والخبر فتتصب الأول ويصير اسمها وترفع الثاني ويسمى خبرها، ولكن الغالب أن خبرها يكون محذوفاً ويكون مقدرًا، وهذا شيء معروف عند التحويين ولكنهم غلطوا في إعراب «لا إله إلا الله» غلط فاحش جداً، فلو رجعت إلى كتب النحو وجدت أكثرهم يقولون في إعرابها: لا إله موجود إلا الله؛ لأنهم يشترطون أن يكون الخبر المحذوف مشتق فلابد أن يكون إما اسم فاعل أو اسم مفعول أو جملة اسمية أو خبرية، فقالوا الخبر: موجود، وهذا في الواقع كذب، فكيف يقولون لا إله موجود إلا الله والدنيا معلومة من الألهة؟

فأصبح هذا الإعراب خلاف ما يراد من هذه الكلمة، والعلماء يقولون: تقدير الخبر لا إله معبود بحق، لأننا لو قلنا: لا إله معبود صارت مثل لا إله موجود، وهذا لا يصح.

ومعروف أنه عند الإعراب يفهم الكلام وتفهم المعاني، ولهذا أول ما يبدأ فيه طالب العلم هو مبادئ معرفة الإعراب وكون الكلام له تقديرات وروابط ونحوها ليعرف المعنى المقصود، ولهذا قال هنا: «لا معبود بحق» يعني هذا هو الخبر المقدر وهو معناها المراد.



(إلا الله) مُثَبِّتِ الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ،

الشرح:

«إلا» مثبتة الإلهية لله جل وعلا، وهذا من أبلغ الكلام، الذي والإثبات، لأنه يجعل الشيء المقصود محصوراً بما ذكر فقط، ولا يجوز أن يحدوه إلى غيره، فيكون المعنى: لا يجوز التأله إلا لله وحده فقط، وتركيب الكلام لأجل هذا، والعرب يعرفون هذا تماماً، ولهذا لما قال لهم رسول الله: «قولوا لا إله إلا الله»، أبوا أشد الإباء، وقالوا: هذا يطل آلهتنا ﴿لَبَّسُوا الْآيَةَ بِهَا وَجَعَلُوا حَيْثُ لَقُوا نَجْمًا﴾ (س: ٥). فهذا هو المقصود، أن يكون التأله لله وحده وهو معنى لا إله إلا الله، فهذا إثبات العبادة لله والأول نهي للتعبد وأن الإله اسم جنس وهو يطلق على كل ما له سواء كان عاقلاً أو غير عاقل وسواء كان ذاتاً تُرى أو معنى ويقول العلماء تبعاً لما بين الله أن أعظم معبود تحت أديم السماء في الأرض هو الهوى ﴿الْمَرْبُوبَاتُ مَنْ أَلْفَدْنَ إِلَيْهِمْ حَوْبَهُ﴾ (المائدة: ١٢٢). فالهوى هو ما يهواه الإنسان واتبعه من الشهوات وغيرها وهو معنى ولكنه يطلق على أشياء كثيرة، فالعبادة تكون له جل وعلا وحده لا شريك له في عبادته.

حَيْثُ لَقُوا نَجْمًا لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ فِي مُلْكِهِ

الشرح:

فليس له شريك لا في ملكه ولا في خلقه، وهذا أمر لا ينكره أحد وكل الكفار يقولون به، أما الشروط التي يقولون أنها شروط لا إله إلا الله فهي مأخوذة من هذا.

وتفسيرها: الذي يؤسّسها قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الْبَيْتَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾
 إني بركة إنما تعبدون ﴿٢٦﴾ إلا الذي فطرني ﴿العرف: ٢٦-٢٧﴾.

الشرح:

استثنى من المعبودات ربه وهو معنى لا إله إلا الله، ومعنى فطرني خلقني ابتداءً، جاء رجلان يختصمان عند الرسول ﷺ في بئر، فقال أحدهم: أنا فطرتها، قال الآخر: أنا ورثتها عن آبائي، فطرتها يعني أنا الذي بدأت حفرها وأوجدتها.



﴿وَأَقَامَ الْبَيْتَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ ﴿العرف: ٢٧-٢٨﴾.

الشرح:

يعني أن الهداية بيده تعالى يهديه إلى الصراط المستقيم، الضمير في قوله: ﴿وَأَقَامَهَا﴾ يعود للكلمة التوحيد، فعبّر عنها بالمعنى ثم أعاد الضمير إليها، وجعلها باقية في عقب إبراهيم أي في ذريته، فلا يزال في ذريته من هو مخلص وموحد لله جل وعلا سواء من الذكور أو الإناث.



﴿وَأَقَامَ الْبَيْتَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ ﴿العرف: ٢٨﴾.

الشرح:

أي يرجعون لهذا الشيء ويكون لهم دعوة إلى الله، وكان من آخرهم من الأنبياء محمداً لأن كل نبي بعث بعد إبراهيم من ذريته، فلم يبعث نبي من غير ذرية إبراهيم بعده.



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبِعُوا سُلُوكَكُمْ يَكُونُ لَكُمْ عَنَّا وَبَيْنَكُمْ﴾

(آل عمران: 61)

الشرح:

يعني نسوي كلنا فيها، لا يكون بيننا من يكون له خصوصية.

• • •

﴿أَلَا تَسْبِيحُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ (آل عمران: 61)

الشرح:

وهذا معنى لا إله إلا الله.

• • •

﴿وَلَا يَلْبَسُونَ بِكُفٍّ مِمَّا كَفَّتُوا فِيهَا بَلْ يَمُوتُونَ فِيهَا﴾ (آل عمران: 61)

الشرح:

وهذا ينافي لا إله إلا الله، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (الحج: 31) فهو تأكيد لعبادة الله وهو كوننا لا نعبد إلا الله

ولا نشرك به شيئاً.

• • •

﴿بَلْ تَرَوْهَا كَثِيرًا مَتَوَلَّى﴾ (آل عمران: 61)

الشرح:

يعني إن أبوا قبول ما دعوتهمم إليه، فأشهدهمم على أنكم

مسلمون، ومعنى هذا أنكم تتركون منهم ومن عبادتهم، ومن الآيات

الواضحة في هذا ما ذكره الله جل وعلا في دعوة هود لقومه في سورة

الأعراف قال: ﴿وَأَنَّ عِلْمَ السَّامِعِ هُوَمَا قَالَ يَقْتَضِي أَنْبَاءَ اللَّهِ مَا لَكَ مِنْ إِنْكَارٍ غَيْرَهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]. فقالوا: ﴿أَجِئْنَا بِتَعْبُدِ اللَّهِ وَتَشَدُّهُ وَتَدْرَأَ مَا سَخَّرَنَا بِتَعْبُدِ مَا نَرَاهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]. فهذا يدل على أن المقصود أن تكون العبادة لله وحده، ولهذا صرحوا بذلك.



وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا يَفْعَلُونَ خَرِجُوا مِنْ بَنِيكُمْ وَأَلْمِئْتُمُوهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الشرح:

وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَسُولًا وَقَالُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العرس: ١٥-١٦]. وهناك آيات كثيرة تدل على هذا.

قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ اللام يقال بها موطئة للقسم والتقدير: ولقد جاءكم رسول، وذكر ﴿رَسُولٌ﴾ لتعظيمه.

قوله: ﴿بَيْنَ أُنْفُسِكُمْ﴾ يعني تعرفونه وتعرفون صدقه وتعرفون نشأته وتعرفون أمانته ولا يخفى عليكم، وهذا من فضل الله كونه يكون منا ونعرفه وبلغتنا هو من أعظم النعم.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ عزيز يعني أنه يشق عليه ذلك، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني من الشيء الذي يعنتكم وأعظمه الوقوع في الشرك.
 قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَىٰ هُدَايَتِكُمْ، وَهُوَ رُؤُوفٌ بِرَأْفٍ بِهِمْ وَيَرْحَمُهُمْ مَبَالِغَةً وَفِي الْمَقَابِلِ شَدِيدٌ عَلَى الْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ جِبِلُّ وَعَلَا: ﴿تَعْتَذِرُونَ لِقَوْلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ نَعَنَهُ أَنِّي عَلَى الْكُفَّارِينَ حَكِيمٌ﴾ [التوبه: 129].

وَتَعْتَذِرُونَ لِقَوْلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ نَعَنَهُ أَنِّي عَلَى الْكُفَّارِينَ حَكِيمٌ
 وَأَخِيرٌ، وَأَخِيرٌ مَا نَهَى عَنْهُ وَرَجَزٌ وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعٌ.

الشرح

أن نطيعه فيما أمرنا، ونصدقه فيما جاءنا به وأخبر به، واجتناب الأمور التي ينهى عنها، وأن نُعبد الله جل وعلا بشرعه الذي شرعه وجاء به وألا نُعبد الله بغير ذلك، فصار معنى شهادة أن محمداً رسول الله الدين كله مثل شهادة ألا إله إلا الله، ومع ذلك فالشهادتين كلاهما ركن واحد ومرتبعتين ولا يمكن أن يقبل واحدة من دون الأخرى، فلو شهد الإنسان ألا إله إلا الله ولم يشهد أن محمداً رسول الله فهو كافر، ولو شهد أن محمداً رسول الله ولم يشهد ألا إله إلا الله فهو كافر، ولهذا أبو طالب عم النبي ﷺ كان يصدقه ويقول: هو رسول، ولكن لم يتابعه، ويقول أنه لا يكذب ولا يعني بالباطل كما قال في قصيدته، لهذا لما جاءه الموت رجا الرسول ﷺ أنه يقول لا إله إلا الله، لأنه إذا قالها فهو يقولها عن

معنى، فجاءه وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية، وهذا من أعظم الضرر أن يكون عند الإنسان جلساء السوء، فقال له: يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فتظر إليه كأنه يمكن يفكر أو يقول، فقال له أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟

وهذا معناه أنك إذا قلت هذه الكلمة خرجت عن ملة عبدالمطلب، وملة عبدالمطلب هي الشرك وعبادة الأصنام، فأعاد عليه الرسول ﷺ قوله، فأعادا عليه نفس الكلام: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فمات على ملة عبدالمطلب^(١). فالشاهد أنهم يعرفون أن قول لا إله إلا الله ليس مجرد كلام أو نطق بل المقصود بها أن يكون المعبود هو الله وحده، وكل عبادة لما سواه تكون باطلة مجتنبة، والناس في رسول الله ﷺ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جفاة ولم يرى حقه، وهذا كفر بالله.

القسم الثاني: من غلا فيه وأزله فوق منزلته، وهذا باطل.

القسم الثالث: من توسط، فعلم أنه رسول وأحبه الحب الواجب واتبعه وتعبد الله بالشرع الذي جاء به.



وَقَلِيلٌ الصَّلَاةِ، وَالزُّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ (آية: ٥).

(١) البخاري (١١٧٢) كتاب الجنائز، باب إذا نال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، مسلم (٣٥) كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في التبرع، من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

الشرح:

وهذا خطاب لأهل الكتاب والمشركون كلهم؛ لأنه في أول السورة يقول: ﴿لَوْ يَكْفُرُونَ كُفْرًا﴾ (آية: 1) والأمر الذي جاءهم هو هذا، وهذا يدلنا على أن الصلاة مفروضة على من قبلنا، ولكن ليست على هذه الصفة، وكذلك الزكاة كانت مفروضة على من قبلنا، وأما إخلاص الدين والعبادة لله فلا إشكال فيه، وكل الرسل تأمر به.

• • •

﴿وَذَلَّلْنَاهُ بِرَبِّهِمْ﴾ (آية: 10)

الشرح:

يعني الدين القيم الذي يجب أن يُتبع.

• • •

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ تَعْلَمُونَ﴾ (آية: 183).

وَدَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّانَ حَجَّ آلِهَتِهِنَّ مِمَّا دَعَبْنَ إِلَى سَيْبِهَا وَتَمَّتْ لِقَاءُ رَبِّكُنَّ أَنتَ حِينَ تَقُوبْنَ﴾ (آية: 125).

الشرح:

واستدل بهذا على أن ترك الحج كفر إذا تركه مع الاستطاعة والتمكن، قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا النَّاسُ حُجُّوا لِمَ تَعْلَمُونَ﴾ (آية: 196). لا يكون دليلاً لأنه أمر بالإتمام لمن شرع فيهما، فإذا شرع فيه وجب عليه أن

الجزء، يعني أنه أجزاء كثيرة تجتمع، والبضع من الثلاثة إلى التسعة.

فَأَقْلَبْنَا قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

الشرح:

وهو قول ولكن لا بد من عقيدة القلب، وهذا القول يشمل الدين كله،
وبدلنا هذا على أن الإسلام داخل في ذلك؛ لأننا قلنا أن من أركان
الإسلام شهادة ألا إله إلا الله.

وَأَدْنَاهَا إِمَامَةُ الْأَدْنَى عَنِ الطَّرِيقِ،

الشرح:

يعني إزالة الشيء الذي يؤدي الناس الذين يعرفون في الطريق، وهذا
فعل وعمل تعلمه، وهذه شعبتين.

وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ^(١).

الشرح:

والحياء خلق يقتضي الانفعالات الحاصلة من الشيء الذي يستحق
منه فيمنع الناس من فعل ذلك، فهذه ثلاثة شعب، وقال: «بضع وسبعون»
فيبقى سبعون شعبة.

(١) أمر به مسلم، ورواه الحافظ بلفظ: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»
من طريق عبد الله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

وَأَزْخَاتُهُ بَشَّةٌ: كما في الحديث «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ».

الشرح:

وهو التصديق الجازم بوجود الله جل وعلا وبأنه عليم بكل شيء ومحيط بكل شيء، وقادر على كل شيء، وأنه الخالق لكل شيء، وأنه هو الأول والأخر والظاهر والباطن وأنه الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وأنه الإله الحق الذي لا يجوز أن يعبد غيره، وقد تُعرَفَ اللهُ جل وعلا إلى عباده بأسمائه وأوصافه كما تُعرَفَ إليهم بأفعاله ومخلوقاته فيجب أن يعرفه الإنسان على ما وصف به نفسه جل وعلا وكلما ازداد معرفةً ازداد إيماناً يعني كلما تعلم وتفهم وتفقه في صفات الله وفي أفعاله ومخلوقاته زاد علماً وإيماناً بالله جل وعلا، والإيمان عند أهل السنة يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فقد ينقص حتى لا يبقى منه إلا شيء قليل وقد يزول لأن المعاصي كما يقول العلماء يريد الكفر ودليله إليه فقد يزداد معاصي ثم تراكم ثم يترك الإيمان ويدخل في الكفر وبالعكس فقد يزداد إيماناً إلى أن يصل إلى اليقين، ولهذا اختلفت مراتب المؤمنين ومنازلهم في الجنة وقد جاء في الصحيح في الرؤيا التي قصت على النبي ﷺ وأقرها، أن أحد الصحابة قال: رأيت كأن ميزان وضع فوزنت بالأمة فرجحت بها ثم وزن أبو بكر فرجح بالأمة^(١)، فإيمان رجل واحد يكون أرجح من إيمان الأمة كلها، ومعلوم أن إيمان الرسل والملائكة ليس كإيمان أحاد الناس، فإيمان قد

(١) صحيح، رواه أبو داود (١٦٣٤-١٦٣٥) من طريقين عن أبي بكر، والحديث مخرج في «فلاح الجنة» (١١٣١-١١٣٢) و(١١٣٥-١١٣٦)، أمالياني.

بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَكْفَرُوا بِنُكْرَيْتِهِ ﴿المطففين: ١٨﴾. فالإيمان يدخل فيه العلم ويدخل فيه القول ويدخل فيه العمل وهو يتكون من هذه الثلاثة الأشياء وإذا فقد واحد منها فقد الإيمان، ولكن إذا وجد إيمان القلب وإقراره وبقينه لا يد من وجود العمل ولا يمكن أن يقال هذا مؤمن مؤمن ثم يتخلف العلم وإنما هذا قد يكون تقديرات لا وقوع لها بقدرها بعض الناس كأن يقال إنسان آمن ولكنه لم يصل ولم يرك ولم يصوم فهذا تقدير غير واقع، فإذا آمن فلا يمكن إلا أن يعمل أما إذا وجد هذا فمعنى ذلك أن الإيمان لم يصل إلى قلبه ولم يتحلى به.



وَقَالَتِ الْيَهُودُ

الشرح:

وتؤمن بأعيانهم الذين ذكروا لنا وسموا لنا مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل ورهبان ومالك، فيجب أن تؤمن بأعيانهم وتعلم أنهم عباد مكرمون ولا يعصون الله ما أمرهم ويأثمرون بما أمرهم الله وأنهم خلقوا للعبادة ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ذاتاً وهم كثيرون جداً، أما الذين لم نذكر لنا أسماءهم فمنهم من نعرفه بالوظائف التي ذكرت لهم مثل الحفظة ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْهَوْنَ عَنْ أَنْتُمْ وَأَنْ يُظَاهِرَ الْفَاسِقَ إِذَا وَقَعَ بِالْجُنُودِ وَالْمَلَائِكَةُ بِكُمْ إِذْ حَمَلَ الصَّلَاحَ عَلَى الْعَرْسِ﴾ ﴿الأنعام: ١٠-١١﴾. فكل واحد منا مع أربعة ملائكة كرام اثنان في النهار واثنان في الليل يتعاقبون كما قال الرسول ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار، يجتمعون في صلاة العصر وفي صلاة الفجر، فإذا صعِدوا سأَلهم الله جل وعلا: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: يا رب أبيتاهم وهم يصلون وتركتاهم وهم

يصلون^(١). ينزلون في صلاة العصر يستمعون فيصعد الذين نزلوا صلاة
الفجر ويقض الذين يبتون معناه فإذا جاءت صلاة الفجر نزل أولئك
فأعقبوهم، والله يسألهم حتى يظهر ذلك عند الملائكة الذين لا يعرفونا
ولا لهم صلة بنا، فإذا سمعوا هذا قالوا: إذن هؤلاء وقتهم كله صلاة
فيدعون ويستغفرون لنا، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ بِحَرَفٍ
مِّنْهُ لِيَسْتَوِيُوا بِهِمْ وَيَتَذَكَّرُوا أَلْفًا مِّنْهُ لِيَكُونَ لَهُمْ مَحْرَبٌ مِّنْ
اللَّهِ وَالرَّسُولِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّجْتَمِعِينَ وَالرَّسُولُ
مَعَهُمْ وَهُمْ لَا يُفْرَقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فهذا من فضل الله تعالى وكرمه وجوده، ولكن المشكلة إذا جاؤوا
والإنسان نائم أو يلعب وقد غفل عن الصلاة ماذا يقولون؟

وإذا مات الإنسان لا يذهبون إلى إنسان آخر يقولون يحفظون عمله
ويقول بعض العلماء: أنهم يقولون يستغفرون له، وهذا فضل من الله.

ومنهم الموكلون بقض الأرواح، فملك الموت معه أعوان له كما
قال الله جل وعلا: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ جَزَاءٌ
عَظِيمٌ وَسَاءَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ أَجْرٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

(١) البخاري، (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، ومسلم (١٦٣٢) كتاب
المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، من حديث أبي هريرة رضي
الله عنه. صححه الألباني في صحيح الترمذي والتهذيب.

أَنْفُسِكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُونَ ﴿ انصت: ٣٠-٣١. فذال: ﴿النَّارِ بِسَكَّةٍ﴾
ولم يقل المَلَكُ، وتبشرهم بعدم الخوف والحزن، وهؤلاء يتزلون إليه
عند خروج الروح وشاهدتهم، ولهذا قال الرسول ﷺ: «تقبل توبة العبد
ما لم يعاين»^(١) يعني يعاين الملائكة فإن عاينهم فذلك يعني أنه قد فارق
الدنيا ولا يقبل منه عمل ولا توبة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ عَظِيمًا﴾ انصت: ٣٠. يعني لا تخافوا مما
أمامكم ويستقبلكم فأنتم مكرمون، ولا تحزنوا على ما تركتموه من الدنيا
من أهل وولد ومال، فالعبد هو الذي يبشر بهذا وهو الذي بنى مستقبله
بناءً صحيحاً سليماً وصار مطمئناً، فإذا وضع في قبره فتح له باب إلى
الجنة يأتيه من روحها ونعيمها وريحاتها ويفسح له في قبره وينور له فيه
ويكون مد البصر أو أكثر فيكون في روضة، وإن كنا لو كشفنا عنه لوجدناه
على الحالة التي دفن عليها أو قد مثلاً تأكل الأرض عظامه ولكن روحه
منعمة وكذلك الأجزاء التي أكلتها الأرض تحس بالنعيم، والإنسان في
القبر كما سيأتي إما في نعيم أو في جحيم - نسأل الله العافية - ونعيمه
يكون خاصاً به حتى لو قبر معه مقبوراً آخر، فنعيم هذا لا يصل إلى هذا،
وعذاب هذا لا يصل إلى هذا، وإن كانوا في قبر واحد، والله لا يعجزه
شيء تعالى وتقدس.

والذين يتزلون على الذين كفروا معهم سياط من النار يضربون

(١) ابن ماجه (١١٤٣٣) كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في المؤمن يزجر في النزع،
وعبد الرحمن في المصنف، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وجوههم وأديارهم يقولون لهم: ﴿أَفَرِحُوا أَنْفُسَكُمْ يَوْمَ تَحْزُونَكَ عَذَابَاتِ الْهُونِ﴾ (الأصنام: ٤٣). فيبدأ العذاب من ذلك الوقت، ولهذا نقول: إن المؤمن العظمي أشد ما يلاقى الموت، وما بعد الموت أسهل منه، بل ينتقل من نعيم إلى ما هو أفضل وأكمل وأوسع، أما الكافر والمتأفق أسهل ما يلاقى الموت وما بعد الموت أشد، وينتقل من شدة إلى شدة إلى أن يصل إلى جهنم وكل هذه الأمور ستعايشها ولا بد، فيجب أن يفكر الإنسان فيها وأن يعمل ولا يتساهل، ولهذا كثيراً ما يوصي ﷺ ويقول: «لا تنسوا هاتم اللذات»^(١) وهو الموت، ويكون ذكره ليستعد الإنسان وينها كما قال أيضاً في وصيته: «لا تنسوا العظيبتين: الجنة، والنار»^(٢)، لأن المصير إليهما.

ومن الملائكة من كان موكلأ في الفطر والنبات وسوق السحاب، ومنهم الذين وكلوا بالأرحام، فيأتي الملك ويدخل في رحم المرأة عندما يحضي على النطفة مئة وعشرون يوماً، فيسأل: يا رب، ذكر أم أنثى؟ ما الرزق؟ ما الأجل؟ ما العمل؟ شقي، أم سعيد؟

فيأمره الله ويقول له: اكتب كذا، فيسجل بالصحيفة معه ويطويها ولا يزد عليها ولا ينقص، فهذه الكتابة وهو في بطن أمه لم يخرج إلى الدنيا، وقبل هذه الكتابة كتابة أخرى، ومن الملائكة الذين في

(١) «الترمذي» (٢٣٠٦) كتاب الشهادات عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في ذكر الموت، والنسائي

(١٨٢٤) كتاب الجنائز، باب ذكر الموت، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير»، والدولابي في «الكسب والأسماء»، والحافظ ابن حجر العسقلاني في «المطالب العلية»، وأبي نعيم في «صفة الجنة».

السماء كما جاء في الحديث: «أطت السماء وحق لها أن تأت ليس فيها موضع قدم إلا وملك رابع أو ساجد أو قائم»^(١) إلى قيام الساعة. والأطيط هو صوت الشيء الذي صار له صرير من الحمل.

ويقول الرسول ﷺ في حديث المعراج: «إنه رأى البيت المعمور في السماء السابعة، وهو حياض الكعبة - أي مقابل لها من فوق -، تتعبد فيه الملائكة، وإذا بدخله في اليوم سبعون ألف لا يعودون إلى مثله أبداً»^(٢)؛ لأنه لا يحصل لهم من كثرة الملائكة الذين يترددون عليه فالذي يأتيه مرة لا يأتيه مرة أخرى؛ لأنه لا ينهأ له من الكثرة، ومن الملائكة الذين وكلوا في النار يوفودها وتعذيب أهلها، ومنهم الموكلون بالجنة وغير ذلك مما ذكره الله جل وعلا، فيؤمن بهم حسبما ذكر.



وَكْتَبِي:

الشرح:

الكتب التي ذكرت لنا بأعيانها تؤمن بها بأسمائها مثل التوراة والإنجيل والزيور، والقرآن مهيمن عليها تؤمن به ويكمل حرف منه، فمن كفر بحرف واحد منه يكون كافراً، وقد بدء بالحمد وختم بسورة الناس

(١) «الترمذي» (٢٣١٢) كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، وهاين ماجده» (١١٩٠) كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. قال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (١٠٢٠) في صحيح الجامع.

(٢) «البخاري» (٢٣٠٧) كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، وأسلم» (١٦٤) كتاب الإيمان، باب معراجة ﷺ إلى السموات، الجنة في السماء، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه. قال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (١٢٧) في صحيح الجامع.

وهو محفوظ تولى الله حفظه ولا أحد يستطيع تبديله ولا تغييره حتى يأتي أمر الله الذي أخبر به الرسول ﷺ بأنه سوف يأتي يوم يسري عليه من صدور الرجال والمصاحف فلا يبقى منه حرف واحد^(١). وهذا يكون عند قيام الساعة لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق^(٢)، فإذا ترك الناس العمل به رفع، ولهذا يذكر ذلك العلماء في العقائد التي يعلمونها المسلمون، يقولون: القرآن كلام الله منه بدء وإليه يعود.

يعني هو الذي تكلم به وأسمعه جبريل ونزل به جبريل إلى محمد ﷺ وبلغه إياه ولم يترك منه حرفاً واحداً حتى الأوامر التي وجهت إلى النبي ﷺ بلغنا إياها يعني إذا قال الله جل وعلا له: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى صِكْرِكُمْ لِنُنظِرَكُمْ﴾ (آل عمران: ٦٤). فيقول لنا هذا القول، وهذا دليل على أنه لم يترك حرفاً واحداً وأن كل ما جاءه أخبرنا به وأخبر أن هذا قول الله جل وعلا، وأما إليه يعود فيعود صفة لأنه من صفاته، وهو كلامه أو أنه يعود يسري عليه ثم يرفع ولا يبقى منه شيء أو أن المراد المعنيين كلاهما.



(١) ابن ماجه (١٤٩ - ١٥٠) كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، من حديث حليفة بن اليمان رضي الله عنه، والحاكم (١٧٣/٤) ومالك: أصحح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «المصححة» (٥٨٧): وهو كما قال.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة باب قوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وَرُسُلِهِمَا

الشرح:

وذلك بأن يؤمن الإنسان بأن الله أكرمهم بالرسالة وأنهم جازوا بالهدى وبلغوه إلى قومهم وأن من أطاعهم سعد ومن عصاهم شقي وأن الدين هو الذي جازوا به وأنه لا طريق إلى الجنة إلا بالسير خلفهم، ورسل الله جل وعلا كثيرون ولا يجوز أن يفرق بينهم بل يجب أن يؤمن بجمعهم كما قال الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ كَمَا اتَّقَوْا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٢٨). وقال جل وعلا في آيات كثيرة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا رَبَّهُمْ وَلَمْ يُخَلِّفُوا فِي بَيْعِهِمْ شَيْئًا وَلَا كَانُوا فِي بَيْعِهِمْ كَذِبِينَ﴾ (الأنعام: ١٨٢). فلبس الإيمان بالظلم أن تفرق بين هذا أو أن تعبد الله وتعبد معه غيره، والرسل الذين ذكروا في القرآن خمس وعشرون رسولاً، ويجب على الإنسان أن يؤمن بهم بأعيانهم لأنهم ذكروا بأسمائهم وأولهم آدم عليه السلام أما الذين لم يذكروا بأسمائهم فهؤلاء تؤمن بهم في الجملة.



وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

الشرح:

فيشمل كل ما أخبر الله جل وعلا به مما يكون بعد الموت في القبر وفي البعث وفي الموقف والجزاء والحساب والجنة والنار.



يَقْتَدِرُ ﴿ (النور: ١٥٩). يعني أنه مقدر قبل وجوده ومكتوب ومعلوم له جل وعلا، وهو الخالق الذي خلق كل شيء.



الْمَرْكَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِحْسَانُ

الشرح:

وهنا قال: إن الإحسان درجة واحدة، وفي الواقع أنه درجتين، ومعنى الإحسان هو أن يأتي الإنسان بالعمل على الوجه المطلوب ويأكمل ما يكون.



أركانها: **وَلَهُ زُكْرٌ وَاجِدٌ**. كما في الحديث: **«أَنْ تُعْبَدَ اللهُ عِبَادَتَكَ تَرَاهُ»**.

الشرح:

وهذه درجة، فلو قدر للإنسان أن يشاهد ربه فلن يدخر من إحسان العمل شيئاً وسيأتي بالعمل على الوجه المطلوب ويأتي شيء، فإذا لم يصل إلى هذه الدرجة انتقل إلى الدرجة التي دونها.



فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ بَرَاءٌ.

الشرح:

وهذه الدرجة الثانية وهي عبادته جل وعلا على اليقين، يعني تعبده مع العلم أنه يشاهدك ويراك، فإذا لم يصل الإنسان إلى هذا الشيء فهو لم يصل إلى الإحسان.



وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾

(الحمل: ١٢٨).

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِكُمْ عَلَى الْمَهِيضِ الرِّجْسَ﴾ ﴿٣٣﴾ أَلَمْ يَرَبِّكَ جِبْنَ تَقْوَىٰ ﴿٣٤﴾

وَتَقَبُّكَ فِي كِتَابَيْنِ ﴿٣٥﴾ بِشِعْرٍ كَتَبْنَاهُ قَلِيمًا ﴿٣٦﴾ (الشعر: ٢١٧-٢٢٠).

الشرح:

هذا دليل على الدرجة الثانية، وهذا شيء يعلمه كل أحد من المسلمين، فيعلمون أن الله يراهم ولكن قد يغفلون عن استحضار العلم والشيء الذي يلزم منه أن يكون الإنسان مجتنباً للتواهي وفاعلاً للعامرات.



وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ

إِلَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُرْهُوا إِذْ تُلْقُونَهُ﴾ (يوسف: ٦٦).

الشرح:

يعني أن الله يشاهد ذلك ولا يخفى عليه شيء، والأدلة على الأمر بالإحسان والثناء على أصحابه وذكر جزائهم كثيرة في كتاب الله تعالى، وكذا في السنة.



وَالدَّلِيلُ مِنَ الشُّكَّةِ: حَدِيثُ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ حُمْرٍ مِنَ الْخَطَّابِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

وجبريل عليه السلام جاء بصورة رجل وهذا أحد أقسام الوحي، أن

يأتي في صورة رجل معين فيخاطب الرسول ﷺ مخاطبة مثل مخاطبة الرجل الذي يقابله.

قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ جِئَ النَّبِيُّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ،

الشرح:

ذكر كيف جاء وهم جلوس ولا ينتظرون أن يطلع عليهم أحد، وقوله: الإذ تسمى الفجائية، يعني فجئنا شيء ما كنا نتوقمه.

شَدِيدُهُ بِيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،

الشرح:

وهذه أربعة أوصاف:

الصفة الأولى: شديد بياض الثياب، والمسافر لا يكون شديد بياض الثياب، بل تكون ثيابه متسخة من الغبار والهواء والأرض، وهذا غريب ليس من أهل المدينة وهو بهذه الصفة.

الصفة الثانية: شديد سواد الشعر، يعني ليس في شعره غبار ولا تشعث ولا تأثر من الهواء.

الصفة الثالثة: لا يُرى عليه أثر السفر، وهذا تأكيد لأن السفر لا بد أن يظهر على المسافر، لأنه يمشي ويركب على الراحلة.

الصفة الرابعة: لا يعرفه منا أحد، يعني أنه ليس من أهل المدينة وهذا وجه الغرابة.

وهذه رواية عمر رضي الله عنه، وهي في مسلم وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن الرسول ﷺ لما انتهى قال: «أردوا عليّ الرجل» فذهبوا ليردوه فلم يروا شيئاً، فأخبرهم أنه جبريل جاء بصورة رجل ثم جاء بأدب في اللباس والنظافة وحسن اللباس ثم أدب في الجلوس، فعملهم الأدب وعلمهم الدين، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على جانب عظيم من تقدير الرسول ﷺ وكانوا نهوا عن السؤال، فكانوا لا يسألون إلا عن الأمور الضرورية، فجاء جبريل يسأل والرسول ﷺ يجيب حتى يتعلموا لهذا يقول ابن عمر رضي الله عنهما كنا نفرح بالرجل الأعرابي العاقل الذي يأتي يسأل الرسول ﷺ ونحن نسمع.

فَجَلَسَ إِلَى الشَّيْءِ ﷺ فَأَسْتَدْرَكْتَنِي إِلَى رُكْنَيْهِ، وَوَضَعَ كَفِّي عَلَى فُجَيْتِي،

الشرح:

الإسناد هو المقابلة، مقابلة الشيء بالشيء، ومعنى ذلك أنه جلس كهية الجالس للشاهد أمام الرسول ﷺ، وجعل ركنيه مقابلة لركنيه الشيء ﷺ، ثم وضع يديه على فخذه، وهذا معناه أنه تعلّم الصحابة الأدب مع الرسول ﷺ وغيره، وهكذا عند طلب العلم يجب أن يكون الإنسان متادباً، وإذا لم يكن متادباً مع العلم وطلب العلم يُحرم بركة العلم وهذا هو المعروف، ولهذا كان السلف يعنون بالأدب، يقول الإمام أحمد رحمه الله: طلبت الأدب أربعين سنة قبل أن أطلب الحديث، وهكذا

غيره كانوا يعنون به كثيراً، ولهذا ألفوا في ذلك كتباً في أدب الطلب وبعضهم يسميها أدب سماع الحديث وغيرها، فالعمدة والسند هو هذا الحديث ونحوه.



وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ
فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ
الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ
سَبِيلًا».

قَالَ: صَدَقْتَ. فَتَجِبْنَا لَهُ بِسَأَلِهِ وَصَدَقَهُ.

الشرح:

جاء باسمه العلم لما قال: يا محمد، وجاء بعده بالسؤال، فلما أخبره
بأركان الإسلام الخمسة قال: صدقت، فتعجبوا لأن مقتضى السؤال أن
يسأل عن شيء بجهله، ولما قال: صدقت دل على أنه يعلم هذا وليس
جاهلاً، وقوله: «عجبنا له يسأله ويصدقناه» لأن الذي يعلم الشيء لا يسأل
عنه.



قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ.
قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ
بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».
قَالَ: صَدَقْتَ.

قال: أخبرني عن الإحسان.

قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى تَعْبَادًا، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قال: أخبرني عن الساعة.

قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

الشرح:

المقصود بالساعة هو وقت مجيئها، وهذا يدل على أن السائل عنده علم، ومعناه أنك أعلم مني بالساعة، وقد أحضى الله مجيء الساعة عن كل خلقه حتى الملائكة والرسل كما قال الله جل وعلا في قصة موسى: ﴿إِنَّهُ لَكِنَانَةٌ كَائِنَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا يُخْفِيهِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الحق: ١٥).

يقول العلماء: أكاد أخفيها عن نفسي لو أمكن، وقال جل وعلا في آية أخرى: ﴿يَتْلُوكَ مِنْهَا لَمَنْ مَرَّهَا قُلُوبُ النَّاسِ وَالْمَلَأَهَا مِنْهَا رُوحًا يُخْفِيهَا إِلَّا مَن قَلَّ فِي السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ لَا تَأْمُرُ بِالْإِيمَانِ﴾ (الزمر: ١٨٧).

معنى الساعة الضخ في الصور النسخة الأولى، ومن العلماء من يقول: الضخ في الصور ثلاث، ومنهم من يقول: أنه اثنتان، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن كما قال جل وعلا: ﴿وَيُضَخُّ فِي السُّورِ فَصَوِّفِي مَنْ فِي السَّمَكِوتِ وَمَنْ فِي الْأَبْصَارِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ النَّفْثَيْنِ فَإِنَّا هُمْ بِمَا يَنْظُرُونَ﴾ (الزمر: ١٦٨). وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْسُلُ الرِّيحُ﴾ (١) تَنْفِثُ الْأَرْوَاقَ﴾ (الزمر: ١٧-١٦). فالراجحة هي النسخة الأولى، والرافدة هي النسخة الثانية، وعن النبي ﷺ قال: «بين

التفخين أربعون»^(١) قيل لأي مبررة رضي الله عنه: أربعين سنة؟ قال: آيت، قيل: أربعين يوماً؟ قال: آيت، يعني أنه لم يسمع التميز من النبي ﷺ. النسخة الأولى لموت كل من كان حياً في السماوات أو في الأرض إلا من استثناهم الله، فمنهم من قال: أنهم الذين في الجنة من الحور والولدان، ومنهم من يقول: الشهداء، وهو غير صحيح، والله أعلم. المقصود أن الساعة هي النسخ في الصور، ولهذا لما كان وقت مجيئها خفي عن الناس وعن الملائكة عدل إلى السؤال عن أماراتها وعلاماتها.

قال: فَأَخْبِرْتَنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا.

الشرح:

الأمارة: هي العلامة الغريبة من وقوعها، وقد ذكر هنا اثنين: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». والثالثة ذكرت في غير هذه الرواية: «أن توسد الأمور إلى غير أهلها»، وفي رواية: «أن تضيق الأمانة»^(٢).

(١) البخاري (١٧٣٥) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السَّمَاءِ ثَابُوتُ آخِرَاتٍ﴾ (النبا: ١٨) ومسلم (٢٩٥٥) كتاب الفتن وأثرها الساعة، باب ما بين التفخين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كلا الروايتين في البخاري من حديث عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه (٥٧) كتاب العقب، باب من مثل علماء وهو مشتغل في حديثه فأنتم الحديث ثم أجاب السائل، وذكره البيهقي في السنن الكبرى.

قال: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا»

الشرح:

وفي رواية: «ربها»^(١)، والأمة: هي المملوكة التي تكون مثل المال، وأصل ملك الإمام الكفر، فإذا قاتل المسلمون الكفار واستولوا عليهم استرقوا أولادهم ومن يشامون منهم، عقاباً لهم لأنهم لم يؤمنوا، ولا طريق إلى الرِّق إلا هذا الطريق، ولهذا إذا تُرك الجهاد في سبيل الله فليس هناك رق، ومعنى تلد الأمة ربها أن يكون الولد كأنه سيد الأم بأمرها وبناها ويتصرف فيها وقد يضربها فهذا من علامات مجيء الساعة، وبعض العلماء يقول: إن هذا عبارة عن كثرة الإمام وكثرة الفتوحات وقد وقع في زمن الصحابة لأنها كثرت، فإذا اشتري الرجل أمة أو كان مقاتلاً مع المقاتلين وأعطى أمة ووطأها وأنجبت له ولداً صارت عتيقة وصار ولدها هو الذي أعتقها فكانه سيدها.

وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَّةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَنْطَلِقُونَ فِي الْبَيْتَانِ.

الشرح:

العالة: هم الناس الفقراء يصبح عندهم أموال طائلة وربما أصبحوا يتصرفون في بعض الناس، أما رعاء الشاء: فهو عبارة عن البدو الذين كانوا يربون الغنم فيخبر عنهم أنهم يسكنون المدن ويصبحون من أهلها

(١) البخاري (٤٨) كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، مسلم (١٠٠) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويتفخرون ويتطاولون في البناء ويتركون ياديتهم، فكل واحد يقول: بتابني وعمارتي أحسن منك. وهذا معنى يتطاولون في البناء ويكون هذا من علامات الساعة، وقد وقع هذا كما هو مشاهد الآن، وكل هذا يدل دلالة واضحة على قرب الساعة وعلى صدق الرسول ﷺ وأنها آيات تدل على أنه رسول الله ﷺ، وهذا مما يزيد الإنسان إيماناً وتصديقاً للنبي ﷺ، ويقول العلماء: أن علامات الساعة أقسام:

القسم الأول: العلامات المتقدمة البعيدة نوعاً ما عن الساعة مثل مبعث النبي ﷺ، فهو نبي الساعة، وكان يقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(١) ويشير بإصبعيه السبابة والوسطى، وكأنه هو الوسطى وهي السبابة، وليس المعنى أن النسبة بين مبعثه وقيام الساعة كالنسبة بين هذين الإصبعين، ولو كان هذا المقصود لعلم مجيئها ولو بالتقريب وإنما المقصود أنها ملاصقة له وأنها تأتي بعد نهاية أمته ودعوته مباشرة بل تأتي على أمته ولا يبدء، وكذلك لشفاق القمر كما قال الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّزَتِ السَّاعَةُ وَالْقَمَرَ﴾ [القمر: ١]. فالساعة قريبة، وكذلك موته ﷺ من علامات الساعة.

القسم الثاني: العلامات المتوسطة.

القسم الثالث: العلامات الكبيرة التي تكون قريبة من قيامها، وجاء أنها إذا بدأت تكون مثل النظام الذي انقطع سلكه، كالخرز الذي ينظم في

(١) «البخاري» (٦٥٠٤) كتاب الرضايق، باب قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»
والمسلم» (٢٩٥١) كتاب القنن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، من حديث أنس رضي الله
عنه. قال الألباني: «صحيح». النظر حديث رقم (٢٨٢٩) في «صحيح الجامع».

سلك فإذا انقطع تابع واحدة تلو الأخرى. **قال:** يا فتى، ما معنى قوله
 الفائدة من ذكر الساعة وأشرافها هو الإيمان بها والاستعداد لها؛ لأنه
 لا بد من وقوعها وإن كان عمر الإنسان قصير وربما يتيقن يقيناً أنه لا
 يدركها، ولكن لا بد من مجيئها وهو قريب جداً، ويقول العلماء: من مات
 قامت قيامته، فالقيامه خاصة وهي ما تخص كل واحد بعينه، فإذا مات
 انتهت حياته ولقي عمله، والعمامة هي الصفحة الثانية في الصور.

• • •

قَالَ: فَتَشَى، فَلَيْتَنَا مَيْتًا،

الشرح:

الملي هو الوقت المحدد، إما يوم أو يومين أو ثلاثة.

• • •

قَالَ: يَا عَجْرُ، أَتَذُرُونَ مِنَ السَّائِلِ؟^(١)

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَغْلَبُ.

الشرح:

يعني هذا يقال إذا كان الرسول ﷺ يقابله والى يقال: الله أعلم.

• • •

قَالَ: هَذَا جَبْرِيْلُ، أَتَأْتِمُّ بِتِلْمِذِكُمْ أَمْزُ دِينِكُمْ؟^(٢)

الشرح:

فجعل هذه الأشياء كلها دين.

• • •

(١) مسلمة (٤٨)، كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام، والنسائي (٤٩٠) كتاب الإيمان
 وشرايعه، باب لعن الإسلام من لعنك عن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الألباني.

« الْأَصْلُ الثَّلَاثُ »

تَعْرِفُهُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الشرح:

نص على اسمه محمد، وهو اسمه العلم الذي عرف به، وله أسماء عدة منها: أحمد، والمأحى، والحاشر، والمقفي^(١)، وهذه الأسماء نص عليها هو ﷺ، وله أسماء غير هذه، واسمه العلم لا بد منه في الشهد وفي تعيينه وتعيينه عن الرسل؛ لأنه لو قيل: تؤمن برسول الله لقالوا: من هو رسول الله؟ أي رسول فرس الله كثيرين؟

فلا بد من ذكر اسمه العلم، ولهذا يقال في الأذان: أشهد أن محمداً رسول الله، وكذلك في الشهد في الصلاة، وكذلك عندما يدخل الكافر في الإسلام لا بد أن يذكر اسمه العلم، وهذا لا ينافي قول الله جل وعلا: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (البقرة: ٤٧٣). والمعنى لا تنادوه باسمه مثل ما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن قولوا يا نبي الله.. يا رسول الله؛ تعظيماً وتقديراً له، وفي هذا تعين ذكر اسمه العلم

(١) روى البخاري من حديث جبير بن مطعم عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «في خمسة أسماء: أما محمد، وأما أحمد، وأما المأحى الذي يمشو الله بن الكثرة، وأما الحاشر الذي يُحشَرُ الناس على قضي، وأما المقفي» كتاب المتأقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، وروى في الدررني: أخبرنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن يوسف بن ميسرة، عن أبي هريرة عن الخولاني، عن ابن عسمة، قال: نزل جبريل على رسول الله ﷺ فمثل بطنه، ثم قال جبريل: قلبت وكتب فيه أذاناً سبعين، وعينان بصيرتان، محمد رسول الله المقفي الحاشر، خلقك فيم وتسلط صائد وتسلط مطبأ. قال أبو محمد: وكتب يعني شديداً، كتاب النبي، باب ما أعطى النبي من الفضل.

ولهذا يقرن معه ذكر رسول أو نبي كما في: أشهد أن محمداً رسول الله لا يبد، ولا تقول أن رسول الله هو رسول الله ولا تقول: أشهد أن محمداً محمداً، فهذا هو السبب في كونه نص عليه هنا باسمه ﷺ الذي عرف به وسماه به أهله.

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ،

الشرح:

وهذا النسب الذي ذكره هو اسم الأب واسم الجد ثم القبيلة؛ لأن هاشم ليس هو الجد القريب، وعبدالمطلب له أولاد متعددون منهم أبو طالب الذي كلفه وقام بتصره، وكان سيداً في قريش.

وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ،

الشرح:

هنا ذكر القبيلة التي هي قريش، وقريش بعيد وسمي قريشاً لأنه جمعهم، والقريش هو التجمع، كانوا متفرقين لجمعهم.

وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ،

الشرح:

وسمي العرب عرباً لإعرابهم الكلام ولفصاحتهم وبلاغتهم، ويقول علماء النسب: أن العرب قسمان:

القسم الأول: العرب العاربة؛ وهم من ينتمي أصلهم إلى نبي الله هود

عليه السلام، والأنبياء منهم أربعة عرب والبقية لسانهم أعجمي، فهود وصالح وشعيب ونبينا محمد ﷺ هؤلاء من العرب، ومن العرب العاربة قحطان واليمن.

القسم الثاني: العرب المستعربة: وهم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ لأن إسماعيل عليه السلام لم يكن أصله عربي؛ لأن إبراهيم عليه السلام ليس عربياً، وإبراهيم عليه السلام أتى بانه إسماعيل إلى مكة مع أنه هاجر ولم يكن بها أتيس ولا حسيب، وهاجر هي الأمة التي وهبها لإبراهيم عليه السلام الجبار الذي استدعاه لما دخل بلده، فقال أعل هذا البلد للجبار: إن رجلاً معه امرأة من أجمل الناس ولا ينبغي أن تكون إلا لك، وهذه المرأة هي سارة، فاستدعاه وسأله عنها.

فعلم إبراهيم عليه السلام أنه إذا قال إنها زوجتي أخذها، فقال: إنها أختي، تأول هذا بأنها أخته في الإسلام، ثم علم أنه سيستدعيها فقال لها: إنه سأنتي فقلت: إنك أختي فلا تكلميني، أنت أختي في الإسلام، ليس في الناس اليوم مسلم غيري وغيرك، وهي سارة، فاستدعاها وسألها قالت: أنا أخته، ومع ذلك مد يده إليها فقبضت يده، فقال: ادعي إلهك أن يطلق يدي ولن أتعرض لك، فدعت الله فمدها مرة ثانية فقبضت أشد من الأولى، قال لها مرة أخرى: ادعي إلهك أن يطلق يدي ولن أتعرض لك، فدعت الله فمدها مرة ثالثة فقبضت مرة أخرى حتى صار يركض برجله الأرض ورأى الموت، فقالت: اللهم إن يموت بقولون قتلته، فقال: ادعي إلهك أن يطلق يدي وأخرجك، فدعت الله فأطلقه فصاح: أخرجوها عني إنما جئتموني بشيطان، ثم أعطها الجارية، وكان إبراهيم عليه السلام

بصلي ويدعو ربه، فلما جاءت سارة استقبالها قائلاً: مهيم؟
 قالت: أخزاه الله وأخذم وليدك، وإبراهيم عليه السلام لم يأتيه من
 سارة أولاد وكبير سنه، فوهبه الجارية فحملت ففارت سارة منها، فجاء
 بها مهاجراً مع ابنها وهو يرضع، فوضعها في مكان عند البيت وليس
 عندها أحد ورجع وهي تقول: يا إبراهيم تذهب وتركتنا هاهنا وهو لا
 يكلمها، فلما رأت أنه لا يكلمها قالت: الله أمرك بهذا؟
 قال: نعم. فرجعت وقالت: إذن لا يضيعنا الله، وكان معها قليل من
 الماء وقليل من التمر، فاتتهى الماء وجف ثديها وجاع الصبي وظني
 حتى كاد يدركه الموت وجعل يتلطب، فكرهت أن تنظر إليه وهو يموت،
 فنظرت فإذا أقرب مرتفع إليها هو الصفا، فصعدت الصفا لعلها ترى
 أحداً فلم ترى أحداً فنزلت متجهةً للمروة لعلها ترى أحداً وفعلت هذا
 سبع مرات، إذا وصلت الوادي سعت أشد ما يكون سعياً بكل جهدها،
 وأخيراً سمعت صوتاً فقالت لنفسها: صه، ثم تأكدت من الصوت وقالت:
 لقد سمعت إن كان عندك غوث فأغث، فنظرت فإذا جبريل عليه السلام
 عند الصبي فبحث في الأرض فبعت زمزم فصارت تحجرها بالتراب،
 يقول الرسول ﷺ: «رحم الله أم إسماعيل لو تركتها لكانت عيناً مميته»^(١)
 ولكنها حجرتها فاحتجر الماء فصارت تشرب من الماء وقال لها: لا تخافي
 فإن هذا الصبي سيأتي مع والده يتألف في هذا المكان، وجاءت مجموعة

(١) البخاري (٢٣٦٨) كتاب المساقاة باب من رأى أن صاحب العوض والقرية أحق بماءه
 وأحسده (٣٢١٧) سنن أبي حنيفة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الألباني:
 صحيح. انظر حديث رقم (٥٠٧٩) في صحيح الجامع.

من الناس من اليمن ومن أسفل مكة فرءوا الطير تحوم فوق الماء فقالوا: عهدنا بهذا الوادي لا ماء فيه، فأرسلوا رجلاً ينظر فوجد الماء، فاستأذنها ليزلوا عندها وكانت تحب الأسن، فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، فرفضوا ونزلوا يشربون والماء ليس لهم.

المقصود أن هذا أصل إسماعيل عليه السلام، ثم كبر إسماعيل عليه السلام وتزوج منهم وأتى إبراهيم عليه السلام بعد فترة ينظر إليه ويسلم عليه، ولكنه أتى مرتين فلم يجده، أحدهما لقي زوجته فقال: أين بعلك؟ قالت: ذهب يطلب لنا الصيد. قال: ما طعامكم؟ قالت: الماء واللحم ونحن في شر من العيش لا يُرضي. قال لها: إذا جاء بعلك أقرته السلام وقولي له بغير عتبه بابه، فلما جاء إسماعيل عليه السلام وكأنه حس سأل زوجته: هل أناكم أحد؟ قالت: نعم جاتنا شيخ كذا وكذا ويقول السلام وقول لك غير عتبه بابك. قال: هذا والدي وأنت عتبه بابي، اذهبي لأهلك، ثم تزوج بأخرى فصارت أحسن من الأولى، فلما جاء إبراهيم عليه السلام مرة أخرى لم يجد إسماعيل عليه السلام، ولقي زوجته، فسألها: أين بعلك؟ قالت: ذهب يطلب لنا الصيد، فسألها عن حالتهم فقالت: نحن بخير ونعم من الله جل وعلا وأنت على الله، فقال لها: إذا جاء بعلك أقرته السلام وقولي له أمسك عتبه بابك، ثم أتى مرة ثالثة ووجده فاعتنقه وقال له: إن الله أمرني أن أبني بيتاً هنا، فصاروا يتنون البيت الذي أمرهم الله جل وعلا ببنائه، فهذا أصل العرب لما تزوج كثير الناس منه وصاروا هم أهل البيت وانتشروا في الأرض وصار له ذرية كبيرة وأرسله الله إليهم، فهو رسول من رسل الله الذين نصح عليهم في

القرآن، فأرسله لذريته ومن حولهم.

وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ، عَلِيُّكَ وَخَلَى نَبِيًّا
أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ^(١١).

الشرح:

ولم يرسل بعد إبراهيم عليه السلام نبي إلا من ذريته، ولكن إسماعيل عليه السلام ليس من ذريته إلا محمد ﷺ، يقال: أن خالد بن سنان نبي أرسل إلى العرب وخطبه قومه^(١٢)، والله أعلم هذا جاء في أحاديث ولكنها فيها مقال ولا ثبت، ثم التعريف بالنسب: محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم وهاشم من قريش وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم لا يكفي للمعرفة، ولو أن الإنسان عرفها معرفة تامة، لأن الكفار كلهم يعرفون هذا كفار قريش وغير كفار قريش يعرفون هذا تمام المعرفة، يعرفون نسه إلى أبعد من ذلك، وقوله جل وعلا:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ (التوبة: 128).

فقال: ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ يعني تعرفونه، وتعرفون نشأته وأمانته وصدقه، يعني أكثر من معرفة نسه ومع ذلك لم تقدمهم هذه المعرفة، فالمعرفة الصحيحة التي لا بد منها هي التي تعرفت بأنه رسول وهي

(١١) انظر: إكمال نسه في كتابه المختصر السيرة.

(١٢) ابن كثير في تفسير سورة المائدة، وأنتج البيهقي (١٤٩/٦) دار المعرفة بيروت، تحقيق:

محمد الدين الخطيب، وكذلك مصنف ابن أبي شيبة والمصنف الكبير.

توقف على النظر في سيرته ﷺ وحالته التي كان عليها، النظر في أحواله وفي أتواله وفي جهاده وفي دعائه فسيرته كلها آيات، فيغض النظر عن الشيء الذي يكون له ويقول له، إذا نظرنا مثلاً بالعقل فهو جاء وحده إلى كفار قريش ولم يكن معه أحد ولم يكن ملكاً أو له دولة بل هم يعرفون أنه نشأ يتيماً ﷺ وكان يرعى لهم الغنم على قراريط يعني دراهم ثم صار يكره اجتماعاتهم وما كانوا عليه فصار يعتزلهم وقد عرف بينهم أنه الأمين حتى إنهم لما انهذت الكعبة وهم يعظمونها جداً، فجمعوا أموالاً وقالوا: لا يأتي في هذا المال إلا ما هو حلال، نفقة حلال ليس فيها ما هو بغي أو ربا، فصارت قليلة لم يستطيعوا أن يجمعوا الشيء الذي يكفي، فاخترلوا من الكعبة حتى تكفي هذه النفقة، ولكن الشاهد أنهم - أي قريش - تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبدمناف وزهرة وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم وكان شق الحجر لبني عبدالدار بن قصي ولبني أسد بن عبدالعزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم، فلما وصلوا إلى موضع الحجر اختلفوا من الذي يضعه، فكل قبيلة تريد أن تحظى بوضعه فكانوا يقتتلون، ثم اتفقوا فيما بينهم أن أول داخل عليهم المسجد يحكموه في هذا الأمر وأن يرضون بما حكم به، فكان أول من دخل هو رسول الله ﷺ وذلك قبل أن يوحى إليه، ففرحوا وقالوا: الأمين.. الأمين، فحكموه فقال: اتوني بثوب، فجاؤوا بالثوب فأخذ الحجر بنفسه فوضعه في الثوب وقال: لتأخذ كل قبيلة بجانب من الثوب فرفعه جميعاً، فلما رفعوه وصار موازياً لمكانه أخذه ووضعوه

ﷺ في موضعه ورضوا بهذا وفرحوا به وذهبت الخصومة^(١)، المقصود أنهم كانوا يعرفونه بالأمانة والصدق، فلما أتاهم وحده قال: إن الله أرسلني إليكم بأن لا تعبدوا إلا إياه وإن بقيتم على شرككم سلطني الله عليكم فقتلتكم وأخذت أموالكم وسييت أولادكم، فهل يقول هذا الكلام عاقل وهو ليس معه قوة، ومعنى هذا أنه يخبرهم على نفسه بالقتل ومع ذلك ما استطاع أحد أن يجراً عليه وإن كانوا يؤذونه ولكن ما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً، فهذا من الآيات، وفي قصة الأعرابي الغريب ومعهم جمل فباعه فاشتره أبو جهل فصار يماطله ولا يعطيه حقه، فجهاد إلى جماعة جلوس منهم بقرب الكعبة فشكى إليهم فصاروا يتكلمون به، فقالوا: انظر ذلك الرجل الذي يصلي - يقصدون الرسول ﷺ - هو الذي يعطيك حقه، لأنهم يعرفون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة فذهب إليه وقال: أريدك أن تعطيني حتى من فلان فقال: نعم، فقام وذهب معه، فأرسلوا رجلاً ينظر ماذا يصنع، فطرق عليه الباب فخرج فقال: أعطي هذا حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى آتيه به، فدخل وجاء يحظه فمجبوا وقالوا إنه أسلم، فبعد ذلك أتى فقالوا له: كيف صنعت ذلك؟ قال: والله لقد رأيت فعلاً عظيماً فأفراً فاه لو امتعت لنفستي، هذه القصة ذكرها طارق السويديان في بعض أشراطه وقال: هذه الشجاعة وهذه كذا وكذا، فهذه ليست شجاعة هذه آيات من آيات الله جل وعلا من آيات النبوة ومع ذلك القرآن أعظم من هذا كله، كانوا يعجبون وكانوا يستمعون حتى كانوا يتعاقدون ألا يستمع أحد ثم يأتي كل واحد يستمع، فالمقصود أن الآيات

(١) السيرة النبوية لابن كثير، سيرة ابن هشام، السيرة النبوية لابن إسحاق البداية والنهاية.

التي تعرف به مثل هذا، وكذلك إجابة دعائه وكونه يخبر بالأمور الغائبة والمستقبلية والماضية وهو شيء لا يعرفونه وهو أيضاً ليس عنده علم سابق ولم يتعلم ولم يقرأ ولم يكتب، ثم كذلك كونه يأمر الشيء مثل الشجرة فتأتي والحجر يسلم عليه يقول: السلام عليك يا رسول الله^(١)، والطعام القليل يتكاثر كما في غزوة الخندق، فإنه ﷺ كان يحضر معهم وكان قد ربط على بطنه حجراً من الجوع، فشاهد ذلك جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقال: لا صبر على هذا، فاستأذنه وقال: يا رسول الله، ائذن لي أذهب إلى بيتي فقال: نعم، وهو يريد الذهاب إلى البيت لينظر هل عنده شيء أو لا، فذهب وقال لزوجته: هل عندكم شيء؟ قالت: عندنا صاع من شعير وعندنا بهمة صغيرة، فطبخ البهمة وقال: اطحنوا الشعير وسوف أذعوا رسول الله ﷺ واثنين أو ثلاثة معه فهذا يكفيهم، فذهب وأخبر الرسول ﷺ قال: إن عندي بهمة وعندني صاع من شعير وقد أمرت أهلي أن يطحنوه وقد ذهبت البهمة وأريدك أن تذهب أنت واثنين معك، فأمر ﷺ أن ينادي في الناس إن جابراً يدعوكم إلى الطعام وكان جيشاً قرابة السبعمائة رجل، فذهب جابر مسرعاً إلى أهله وقال لزوجته: أتاكم رسول الله والمسلمون، كانت الزوجة عاقلة، قالت: هل أخبرته؟ قال: نعم، قالت: إذن لا عليك، فدخل عليهم ﷺ وقال: لا تحبزوا حتى أتاكم، فتقل في المعجن وفي البرمة التي فيها اللحم ثم قال: اخبزوا، فصاروا يخبزون ويقدمون للناس، كل عشرة رجال معاً حتى شبعوا كلهم عن

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ والتسليم الحجر عليه قبل

الشجرة من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه. الكتاب الثاني في أصول العقيدة - ص ١٧٧

أنهم وفي كما كان وكأنه لم يؤخذ منه شيء^(١١)، فلا يمكن أن يكون هذا في مقدور البشر أبداً.

وكذلك قصة أبي هريرة رضي الله عنه التي في الصحيحين بقوله كنت ألزم رسول الله ﷺ على شبع بطني - وكان من الفقراء من أهل الصفة - بقوله: فمر عليّ يوم أو يومين لم أكل شيئاً، فخرجت أنتعش للناس لعلهم يستلحقوني، فمر عليّ أبو بكر رضي الله عنه، فسأته عن آية وليس مقصودي إلا أن يظن لي في دعوتي، ولكنه ما ظنن ومضى ثم مر عمر رضي الله عنه كذلك، فأتى رسول الله ﷺ فلما رأيته ضحك فقال: «أبا هر، قلت: ليك رسول الله، قال: «البعثي» فبعثته، فلما وصل إلى بيته قال: «هل عندكم شيء؟» قالوا: نعم، لينا أعدي لنا. فقال لي: «أبا هر» قلت: ليك يا رسول الله. قال: «انذهب ادعوا أهل الصفة» فقلت في نفسي: أنا أحق بهذا اللين، ولما يعمل بأهل الصفة هذا اللين - وأهل الصفة سبعين رجلاً أو أكثر - وإذا جئت سوف يقول لي: اسقهم، فأكون أنا الأخير ولا يكون لي شيء، يقول: فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم، قال لي: «أبا هر، اسق القوم»، فصرت أمشي به عليهم وكل واحد يشرب فأعطيه الثاني، حتى انتهوا عن أسرحهم، عند ذلك قال: «أبا هر، بليت أنت وأنا» قلت: صدقت يا رسول الله، فقال لي: «اشرب» فشربت. ثم قال لي: «اشرب» فشربت. ثم قال لي: «اشرب» فقلت له: يا رسول الله، والله لا

(١١) «البخاري» (١١٠٢) كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رضي الأعراب، استن الطارفي

(١٢) باب ما ألزم به النبي ﷺ في بركة طعامه، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

أجد له مساعفاً، عند ذلك قال لي: «ارثيه» فأخذته فشرب وهو كما هو^(١)، وهذا كثير جداً ولكن يحتاج الإنسان أن يقرأ في سيرة النبي ﷺ فيعرف أنه رسول الله حقاً، ولكن الشيخ رحمه الله أراد من هذا أنك تعرف نبيه ثم تبحث عن الآيات التي تدل على أنه رسول حق ﷺ.

وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ.

الشرح:

يعني أنه لما توفي كان له ثلاث وستون سنة منها أربعون قبل النبوة، لأنه أتاه الوحي بعدما بلغ أربعين سنة وكان قبل ذلك قد كره ما عليه قومه، فخالقهم وابتعد عنهم لأنهم كانوا يعملون أعمالاً خلاف الفطرة التي فطر الله عليها الناس.

وِثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النَّبُوَّةِ.

الشرح:

منها ثلاثة عشر قضاهما في مكة وعشر سنوات في المدينة، واجتمعت له النبوة والرسالة، وكل رسول نبي وليس كل نبي يكون رسولاً، لأن النبي هو الذي ينأ بالخير من السماء، وخير السماء قد يأتي إلى نبي مع قوم مؤمنين، والرسول لا بد أن يرسل إلى قوم كافرين، وهذا هو الفرق بين النبي والرسول، والأنبياء في بني إسرائيل كثيرون جداً، ويتضح هذا في

(١) «البخاري» (٦١٥٢) كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش ﷺ وأصحابه وتخليبهم من الدنيا.

«ذكره البيهقي في السنن الكبرى» (٤١٣٦) باب المسلم بيت في المسجد.

الأطوار التي كانت في رسول الله ﷺ. من بعد ذلك جسد القسطنطيني
 • • • • •
 ثم يقرأ ﴿ اقراء ﴾ ، ولأزبيل به ﴿ التذرية ﴾ ،

الشرح:

يعني أنه لما كان يعتزل قومه وكان يفر في غار حراء في جبل أسفل مكة وكان يأخذ معه زاداً ويقضي فيه أياماً حتى ينتهي الزاد ثم يرجع إلى أهله، وهذا بعدما تزوج خديجة رضي الله عنها وجاء منها بعض الأولاد، فحبب إليه الخلاه للتفكر في مخلوقات الله، فجاءه جبريل عليه السلام، في صورة رجل وهو في هذا الغار فضمه ضمة شديدة ثم أرسله، وهذا نهيته ليتحمل ما سيلقى إليه، فلما أرسله قال له: ﴿ اقراء ﴾ ، فقال: لست بقارئ، يعني ما أحسن القراءة، فضمه مرة ثانية وكانت أشد من الأولى ثم أرسله وقال له: اقراء، فقال: لست بقارئ، ثم ضمه أشد من الأولىين ثم أرسله وقال له: ﴿ اقراء باسم ربك الذي خلق ﴾ ﴿ خلق الإنسان من عطين ﴾ ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (المعنى: ١-٥). إلى هنا فقط ولم يزد على هذه الآيات، فحفظها ولكنه خاف خوفاً شديداً وجاء إلى أهله ترعّب فراقصه من الخوف، فقال: «أثروني» - يعني غطوني - لأن الخائف إذا غُطي يهدأ، ثم أخبر زوجته بأنه يخاف على نفسه، أي أنه يخشى أن يكون شيطاناً أو جنياً، فقالت: لا والله لا يضرّك الله أبداً، فإنك تُكفّر الضيف وتعين على نوائب الدهر^(١)، فاستدلّت بأفعاله وصفاته على

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها. (المعنى: لا يضرّك الله أبداً، فإنك تُكفّر الضيف وتعين على نوائب الدهر)

أنه لا يناله الشر، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وله صلة برسول الله ﷺ وكان رجلاً كبيراً وقد تنصّر وقرأ الكتب، التوراة والإنجيل، فجهات إليه وقالت: هذا ابن عمك سيصف لك ما رأى لتخبره، فأخبره الرسول ﷺ بما جرى، فقال له: هذا التاموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام - يعني جبريل - ليأتي فيها جذع، إن يدركني أمرك لأنصرتك نصراً مؤزراً، وسيخرجك قومك، قال: «أومخرجي هم؟» قال: نعم، ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي، ثم توقف عنه الوحي، وهنا اختلف العلماء كم الوقت الذي توقف فيه؟

منهم من يقول ستة أشهر، ومنهم من يقول سنتين، وفي هذه الحالة كان نبياً لأن هذه الآيات ليس فيها أمر بأن ينذر، وإنما أمر فقط بالقراءة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [المتر: ١]. وهذا وحي، ثم بعد هذه الفترة كان يشتاق إلى أن يأتيه جبريل عليه السلام لما عرف أنه الحق وكان يحزن كثيراً لأنه لا يأتيه حتى كان بهم أنه يتردى من جبل أو ما أشبه ذلك، فكلما اشتد به الأمر ناداه جبريل عليه السلام: يا محمد أنت نبي الله، ثم سمعه يخاطبه فالتفت يمينا وشمالاً وخلفه فلم يرى شيئاً، فرفع رأسه فإذا هو بين السماء والأرض وقد سد الأفق وكان على صورته الحقيقية وله أكثر من ستمائة جناح، فارتاع أيضاً في هذه المرة أشد من الأولى، فجهاد إلى أهله وقال: «زملوني.. زملوني»^(١)، فجهاد جبريل عليه السلام بالوحي من الله

(١) البخاري (١٩٦٦) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، مسلم (١٦٠) كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أنتيتي بمكة^(١).
 المقصود أنه أول من آمن به زوجته خديجة وأبو بكر ثم بلال رضي الله عنهم، وكان بلال مملوكاً وكان سيده يعذبه لما أسلم فاشتراه أبو بكر رضي الله عنه، والمقصود أنه بهذه الآيات أرسل ولهذا قال **فَتَنَزَّلُ بِهَا** يعني صار نبياً لما جاءه الوحي، والآيات الأولى من سورة اقرأ هي أول ما نزل من القرآن، وما جاء في الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه أنه قال: أول ما نزل المدثر. يحمل على أول ما نزل في تكليف النبي ﷺ أن يكون رسولاً، وأول المدثر نزلت بعد اقرأ وكان بينهما فترة. وقوله: **فَوَأْوَى بِهَا** يعني كلف بالرسالة وهي إيلاخ الناس.

وَيَلِّدُهُ نَكْلَهُ

الشوح:

وهذا من باب المعرفة، أي كونك تعرف من أي بلد نبيك، وأنه من أهل مكة وعاش فيها كما عاش غيره هناك، ثم هاجر إلى المدينة، والهجرة هي هجر المعاصي وهجر ما نهى الله عنه وهي كذلك هجر البلد الذي يكون حكم الكفر فيه ظاهراً والحكم للكفار فيه إلى البلد الذي يكون الحكم فيه للإسلام، والهجرة باقية كما سيأتي إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

(١) مسلمة (ATT) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عميس. قال الشيخ الألباني: صحيح، إلا الجملة الأخيرة منه.

بِعَنَةِ اللَّهِ بِالتَّوْحِيدِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبِالدُّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ.

الشرح:

يعني بعنة ينذر الناس، والنظارة هي الإعلام بالشيء المهم مع التخويف وهي ضد البشارة وتقابلها، فهو ينذر الناس عن معاصي الله، ومن أعظمها الشرك، وكذلك يشر الناس ممن يقبل منه ويوجد الله فهو نذير وبشير، نذير للعصاة والكفار وبشير لمن أطاعه واتبعه بأنه يسعد في الدنيا والأخرة، وهو يدعو إلى التوحيد وطاعة الله والأخلاق الفاضلة والإحسان إلى الناس وغير ذلك من جميع الأمور المحمودة.



وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَتَوَانَى: ﴿يَتَوَانَى التَّوَانَى ١ تَوَانَى ٢ وَتَوَانَى ٣ وَتَوَانَى ٤ وَتَوَانَى ٥﴾

تَوَانَى ٦ وَتَوَانَى ٧ مَقْسِيْرٌ ٨ وَلَا تَتَوَانَى تَتَوَانَى ٩ وَتَوَانَى ١٠ مَقْسِيْرٌ ١١ (المصدر: ١٧٠).

وَمَعْنَى: ﴿تَوَانَى ١٠﴾: يُنذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

الشرح:

قوله: ﴿تَوَانَى ١٠﴾ يعني تقبل الأمر بجد وفرة ولا تتوانى في ذلك فإنه أمر الله جل وعلا، فالأمر بالقيام هو عبارة عن الجهد في ذلك والقوة فيه ولا ينفر في ذلك، وقد قام بذلك كما أمره الله جل وعلا.



﴿وَتَوَانَى ١١﴾ أي: عظمته بالتوحيد.

الشرح:

وتعظيمه عن أن يكون له شريك، والتعظيم يكون بالفعل وبالدعوة إلى ذلك والتحذير منه وبيان عظمته جل وعلا.



﴿وَيَذَلِكُنَّكَفِيرٌ﴾: أي: طَهَّرَ أَعْمَالَكَ عَنِ الشُّرُوكِ.

الشرح:

أي طهر أعمالك عن المعاصي، ويدخل فيه تطهير الثياب أيضاً لأن المسلم يؤمر بالطهارة ظاهراً وباطناً، فطهارة الظاهر أن يكون بدنه وثيابه طاهرة، ولهذا صار هذا شرطاً لصحة الصلاة، وطهارة الباطن أن تكون نيته وأعماله لوجه الله جل وعلا وألا يقصد بها غيره ولا يعصي الله جل وعلا في سمعه أو نظره أو في يده أو في رجله أو في قلبه وغير ذلك، وهذا أعظم الطهارتين.



﴿وَالرُّجْزَ قَاتِلِينَ﴾: الرُّجْزُ: الْأَصْنَامُ، وَهَجَرُهَا: تَرَكْتُهَا، وَالْمِرْيَأَةُ: بَيْتُهَا وَأَهْلِهَا.

الشرح:

مع بغضها وعداوتها ولاهد من ذلك، وهجرها يفتضي أنه لا يكون مع أهلها ولا يكون حولها إلا إذا جاء لتكسرها وقتل أهلها.



أَخَذَ عَلَيَّ هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَذْعُرُونِي إِلَى التَّوْحِيدِ.

الشرح:

ومعناه أنه لم يؤمر بصلاة ولا بصوم ولا بزكاة في مدة العشر سنوات هذه، وإنما أمر بعبادة الله وحده، ومعروف أن الصلاة من أعظم العبادات التي أمر الله جل وعلا بها، ونأخذ من هذا أنه لاهد أن تستقر عبادة الله في الإنسان ويكون مخلصاً دينه لله ثم تأتي الأعمال وتبني عليه، ولا يخالف

هذا المنهج الإنسان الذي يبدأ الناس بالملئق والمعاشرة الطيبة ويتركهم
يقعون في الشراكيات وفي الأمور التي تبطل الأعمال، فهذا دليل على عدم
الفقه وعدم معرفة سيرة النبي ﷺ وما بعث به.

وَبَعَثَ الْمُنْفِرَ يُخْرِجُ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفَرَضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ الْخَمْسُ،

الشرح:

العروج: هو الصعود فوق، والعروج صار من بيت المقدس لأنه
أسري به أولاً ثم هرج به من هناك، وهذا لا يصدق به إلا الذين يؤمنون
بأخبار الرسول ﷺ، وإلا كثير من الناس يقولون هذا لا نعرفه، كيف يصعد
إنسان إلى السماء بلا مساعد؟

ثم أن الصعود إلى السماء مسافة ليست كثيرة ينقطع الأكسجين
فيختنق الإنسان ويموت بسرعة، فهم ينظرون إلى الأمور المادية التي
يتركونها ثم ينون عليها كل شيء ويكذبون الأخبار التي تأتي من هذا
القبيل، ولهذا يقول فريد وجدي في دائرة المعارف التي سماها دائرة
معارف الشباب وهي منتشرة، فلما جاء إلى مادة عَرَخَ قال: هذا لا يعقل
ولا يمكن أن يقع. هذا وهو مسلم، ولكنه يأخذ عن الأوربيين الكفار، ثم
لما جاء إلى مادة إسراء قال: هذا يمكن لأن علماء الغرب قرروا انتقال
الأرواح من مكان إلى آخر، فاستدل بقول علماء الغرب، وقد بين الرسول
ﷺ أن جبريل عليه السلام أتاه معه البراق وهو دابة شبه الفرس يضع
حافره عند منتهى طرفه، فركبه حتى وصل إلى هناك واجتمع الرسل له
فصلى بهم، واجتماعهم كان اجتماع أرواحهم، ثم أتى بالمعراج والله

أعلم ما هو المعراج؟ فرج به، والسماء ارتفاعها هائل جداً، فجاء التقدير بأنه مسيرة خمسمائة سنة بين السماء والسماء وكذلك من سماء إلى سماء، وجاء في حديث آخر سبعمائة سنة، وهي مسافة ليست بسهولة، وإن كان بعضهم جاء بأقل من هذا.

المقصود أن المسافات بعيدة جداً ثم في ليلة واحدة يصعد السماوات كلها ويلتقي بالرسول، وكل رسول يسلم عليه في منزله، ولقاؤه بهم في الأرض غير لقاءه بهم في السماء، فلقاؤهم بهم في السماء في منازلهم وأرواحهم أما أبدانهم فهي في القبور، وقد مر على موسى عليه السلام في قبره وهو يصلي في قبره وهذا من النعيم الذي جزاه الله جل وعلا به وإلا فهو ليس مكلفاً بالصلاة، ولكن الصلاة هي قرة عيون الموحدين فأنعم الله جل وعلا عليهم بذلك، ثم لقيه في السماء السابعة في الرواية التي جاءت في الصحيح يفضل تكليم الله له، ولما صعد فوقه بكى فقيل له: ما الذي يبكيك؟ قال: هذا غلام بعث بعدي ويتبعه من الناس أكثر مما اتبعني، فلما نزل سأله: ماذا فرض الله عليك؟ قال: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمك ضعفاء في أبدانهم وأجسادهم. وقد عالجت بني إسرائيل بما هو أقل من هذا فما استطاعوا، فالتفت إلى جبريل عليه السلام يستشير، فقال: نعم، فرجع فحط عشراً، فأتى إلى موسى عليه السلام فقال: كم فرض عليك؟ قال: أربعون صلاة. قال: ارجع فاسأل ربك التخفيف، فصار يتردد بين موسى عليه السلام وبين المكان الذي كلمه الله فيه إلى أن صارت خمسين، فلما صارت خمسين قال له موسى عليه السلام: ارجع

فاسأل ربك التخفيف، فقال: لقد استجبت من ربي، فكلّمه الله: لقد أمضيت فريشتي وخففت عن عبادي. فقال: إذن أنزل على بركة الله، فنزل في ليلة واحدة، ثم أتى إلى اليراق وركبه ومعه جبريل عليه السلام وجاء إلى مكة قبل طلوع الشمس^(١)، فهذا لا يُستغرب لمن يؤمن بالله ويؤمن بقدرته، فإذا مات الإنسان فالروح تصعد إلى السماء بصحبة الملائكة، فإن كان تقياً فتحت لها أبواب السماء كلها إلى أن تصل إلى السماء السابعة ثم ينادي الله جل وعلا الملائكة ويقول لهم: اكتبوا كتابه في عِلين وأعيده على الأرض، ثم يعاد على الأرض وهذا ما بين نفسه وتكليفه والصلاة عليه، فإذا وضع في قبره أهدت روحه إليه وبأية الملكات بسألته عن هذه الأصول الثلاثة^(٢)، أما إذا كان كافراً فاجراً فإنه إذا صعد بروحه ووصلت إلى السماء الدنيا أغلقت أبواب السماء ثم تطرح طرْحاً، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَانَ كَمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطُّورُ لَوْ تَهَوَّىٰ يَوْمَئِذٍ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ (الحج: ١٧). وما عدا ذلك تعاد إلى جسده، أما الأمور المادية والأمور المعتادة عند الخلق فلا تقاس بقدرته الله جل وعلا، والمقصود في هذا أن نعرف عظمة التوحيد وقدره، وأنه لا يمكن أن يقبل من الإنسان شيء وهو مخل به، يعني عنده شرك.

(١) البخاري (٣٥٩٨) كتاب المناقب، باب الصراخ، مسلم (٢٧٤) كتاب الإيمان، باب الإسراء

برسول الله ﷺ إلى السموات ولمرض الصلوات، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

(٢) أحمد (١٨١٨٦) مسند الكوفيين، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

وَصَلَّى فِي تِنِّكَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَتَعَدَّهَا أَيْزٍ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ،

الشُّوْح:

بقي ثلاثة عشر سنة في مكة، فلما توفي عنه أبو طالب الذي كان يحوطه ويحميه، وإن كانت هذه عصيات، ولكن بعض العصيات قد تُحمد أحياناً، ولهذا من سنة الله جل وعلا في الخلق أنه لم يرسل رسولاً إلا في عزة من قومه، يعني أن قبيلته تحميه وتحوطه، ولهذا قال قوم شعيب عليه السلام له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (أمره: ٤٩١). ورهطك يعني قبيلتك التي تحميك وتحوطك، إلا لو ط عليه السلام فإنه ما كان له قبيلة في قومه، ولهذا قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (أمره: ٤٨٠). وهذا لما اشتد الأمر عليه وهذا في آخر ما كان لهم من اليقظة، لما قرب عذابهم، لأن الله جل وعلا ابتلاهم لابتداعهم بدعة لم يسبقهم بها أحد، فكانوا يأتون الذكوران من العالمين، فسوا هذه السنة الخبيثة الفلرية، وكانوا يتطلعون إلى من يأتيه، ومن تمام البلاء أن الملائكة الذين جاؤوا لتعذيبهم جاؤوا بصورة شباب حسان الوجوه، فلما رأوهم أرادوهم، فصار يحاول أن يحول بينهم وبين ضيوفه حتى اشتد الأمر، فعرض بنائه ليزوجهم إياهم ولكنهم أبوا فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (أمره: ٤٨٠). يقول الرسول ﷺ: فرحمه الله، فقد كان

بأوي إلى ركن شعبده^(١) لأنه بأوي إلى الله، فلما رأى جبريل عليه السلام ما فيه قال له: لا تحزن فلن يصلوا إليك، فطمس وجوههم بطرف جناحه فعميت أبصارهم.

والمقصود أن حماية عمه له ليس لكونه رسول وإنما هو أمر طبيعي من باب العصية، وتوفيت زوجته غديجة واشتد أذى المشركين عليه وكثر المسلمون وصاروا يدخلون في الدين بكثرة، فاشتدت أذية الكفار عليهم خوفاً من أن يكثر ون ويكاثرونهم ويأخذون بلدهم وهم متمسكون بشركتهم، وأكثر ما حال بينهم وبين طاعته هو تعظيم أجدادهم وآبائهم لأنه لما أمرهم بترك الأصنام وسفه أحلام من يعبد الشجر والحجر، قالوا هذا تناقص لأبنائنا ولا نترك دين آباءنا، فهذه كانت حجبتهم بأنهم وجدوا آباءهم على دين وأنهم يتمسكون به وهذه هي حجة الكفار كلهم كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿مَا كُنَّا عَابِدِينَ لِمِثْلِهِ شَيْءٍ أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنَ رَبِّي أَنَّا كُنَّا أُمَّةً حَنِيفَةً حَافِظِينَ كِتَابَ اللَّهِ وَنَهَى الْفُلُوكَ عَنِ الْكُفْرِ﴾ (٢) وهي حجة التقليد وتعظيم الآباء.

المقصود أنهم اشتد أذيتهم فحاولوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ أو يجسوه ويسجنوه أو يخرجوه، فاجتمعوا في دار الندوة لينشاورون فيما بينهم، فجاءهم الشيطان في صورة شيخ وهم أرادوا أن يكون الاجتماع سرياً ولا يحضر أحد من غير الكبار، فلما عرض لهم هذا الشيخ وهو غير

(١) البخاري (٣١٢١) كتاب أصعبت الآباء، باب قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ قَطَمْنَا كَفْرَهُمْ﴾ (٢) مسلم (٢١٦) كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بطعام الأئمة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معروف عندهم أنكروه وقالوا له ما الذي جاء بك، فقال لهم: أنا شيخ من أهل نجد سمعت باجتماعكم ولن تعدوا مني رأياً، فلما قال لهم هذا القول أذنوا له بالدخول معهم وصاروا كلما قالوا قولاً قال: ليس هذا لكم برأي، قالوا: نربطه؟ قال: ليس هذا لكم برأي، لأن كلامه يخرج من وراء الجدران والبواب، ألا ترون حلاوته وطلاوته، فهو مثل السحر، ولكن انظروا رأياً آخر، فقالوا: نخرجه؟ فقال: ليس هذا لكم برأي، فإذا أخرجتموه يوشك أن تجيبه العرب فيأتون إليكم ويقتلونكم. قالوا: صدقت، فقال رجل منهم: إن عندي رأياً ما أراكم وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟

قال: أرى أن نأخذوا من كل قبيلة رجلاً قوياً ويُعطى سيفاً ثم يصر يونه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فترضى بنو عبدالمطلب منكم بالدية. فقال: هذا هو الرأي، فأبدهم بهذا وتفرغوا على هذا الشيء وانفقوا عليه^(١)، فجاءه الوحي من الله جل وعلا وأتهم بيوتونه في بيته، فأمره الله جل وعلا ألا يبيت في منامه تلك الليلة، والله قادر على كل شيء، ولكن شه سنة في خلقه لا تتغير، فأمر النبي ﷺ علي رضي الله عنه أن يبيت مكانه وقال له: لن ينالك أذى، وكانوا يشاهدون من الباب فيرونه متلحفاً بخطاه وهم ياقون عند الباب حتى يخرج إليهم ولم يدخلوا عليه، فخرج من الباب وهم على الباب وصار يأخذ تراباً من الأرض ويلذره على رؤوسهم ويقول: ﴿ وَحَمَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكَّةً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكَّةً فَأَقْبَشْنَا نَفْسَهُمْ فَهُمْ لَا

(١) انظر: أسيرة ابن هشام (١/ ٤١٧)، القدر المستور (٣/ ٣٢٤)، وقد مره السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي في «الذلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بغيره (س: ١٩). وخرج فلما أصبح علي رضي الله عنه وخرج قالوا: أين محمد؟

قال: خرج من بين أعينكم وأنتم تنظرون^(١).
والمقصود أنه خرج من مكة وقد بقي فيها ثلاث عشر سنة يدعو إلى التوحيد.



وَالهجرةُ الانتقالُ من بَلَدِ الشُّركِ إِلَى بَلَدِ الإسلامِ.

الشرح:

والمقصود من الهجرة أن يهجر الإنسان بلده وماله وأهله له جل وعلا ويذهب لتصرة دينه وإظهاره وللمساعدة إخوانه الذين يكونون في بلد الحكم لهم فيه، فالهجرة فرض على كل من يستطيع، فلما فتحت مكة قال الرسول ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(٢).

والمقصود لا هجرة من مكة، ويقول العلماء: هذا فيه إشارة بأن مكة

(١) مرسل بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي، انظر: «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أنور عبد الحمري (١/٢٠٧)، وانظر: «الطبقات» لابن سعد (١/٢٢٨)، ذكره ابن كثير والطبري في التفسير عند قوله تعالى: «وَمَا يَنبَغِي لَهُ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ»
بغيره وَبِئْسَ مَا يَشْكُرُونَ وَتَتَذَكَّرُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠). وكذلك ذكره عبد الرزاق في مصنفه (٥/٢٨٤).

(٢) «البخاري» (٢٧٨٣) كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٨٦٤) كتاب الإمارة، باب العبادة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، من حديث عائشة رضي الله عنها، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (٧٢٧٣) في «صحيح الجامع».

سوف تبقى على الإسلام إلى قيام الساعة، والهجرة نوعان: النوع الأول: هجرة انتقال البدن من مكان إلى آخر. النوع الثاني: هجرة انتقال القلب، وهي أن تهاجر بقلبك إلى ربك مع رسولك ﷺ بطاعة الله جل وعلا وإخلاص العمل له وخوفه ورجاه، وهذا فرض على كل مسلم.



وَالهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ تَلِيدِ الشُّرُكِ إِلَى تَلِيدِ الْإِسْلَامِ.

الشرح

يعني أنها واجبة وفرض لا بد منه وهي فيما إذا خاف الإنسان على دينه ولا يستطيع أن يقوم بالدين، فإذا وجد من يرغمه ويمتنعه من ممارسة شعائر الدين كالصلاة والصوم وغيرها وجب عليه أن يفارق هذا المكان وإن لم يفعل فهو متوعد بالنار.

قبل أن يأمر الله جل وعلا رسوله ﷺ بالخروج من مكة والهجرة كان الرسول ﷺ ينتظر ذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه يسأله الصحبة وقد أعد الرواحل لذلك، فخرج وانخفى في غار حراء ثلاثة أيام وقد جاء الكفار ومعهم الدافة الذين يعرفون الأثر، فجاءوا إلى الغار واستداروا عليه ونظروا، فوجدوا أن العنكبوت قد نسجت على بابه والحمام قد عشش، فقالوا: أن هذا مهجور ولا أحد فيه، وأبو بكر رضي الله عنه يقول له: والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، ولكن لا يبصرون وقد عثمهم الله جل وعلا عليهم، وكل هذا حتى تعمل الأسباب ويكون قدوة لأمتك وإلا فالله جل وعلا قادر على أن يحمله إلى المدينة بلا مسير كما

رفعه إلى السماء، وكذلك قادر على أن يهلك الكفار، فأجز رجلأ من الكفار يقال له عبدالله بن أريقط وأعطاه الراجل وواعد بعد ثلاث يأتيه في مكان معين، وكان دليله على الطريق^(١)، فركبوا معه وساروا من جهة الساحل، وكانت قريش أرسلت الرسل وجعلت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فصاروا يبحثون عنه، ولكن الله جل وعلا يتولاه ولهذا لما رأى ما في أبي بكر رضي الله عنه من الخوف قال له: لا تحزن إن الله معنا، وقال له: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، فلحقه سراقة بن مالك رضي الله عنه وقد رآه وكان يريد أن يحظى بجائزة قريش التي هي مئة ناقة، والرسول ﷺ يسير ولا يلتفت بل يقرأ وأبو بكر رضي الله عنه يخائف يلتفت، فقال: يا رسول الله لحقنا الطلب، قال: لا تخف، فلما قرب منهم على فرسه ساخت فرسه في الأرض، فقال سراقة: ادع الله أن يخلصني ولك مني ألا أتيت بما تكرم، فدعا الله وقال له: كيف بك إذا أليست ناج كسري، وهو كافر وكان رجلاً كبيراً طويلاً، ثم قال له: هذه كتابتي وإيلي أمانك أعطيك إياها حتى تصير علامة للرأي، قال: لا حاجة لنا بذلك ولكن عمي علينا الناس ورد من خلقك، فرجع وصار يقول: كفيبتكم هذه الجهة وليس فيها أحد^(٢)، وكل هذا من فعل الأسباب، وليكون فدوة لأمته، فلا يقول: أتوكل على الله وبشرك الأسباب! لأن التوكل هو فعل السبب مع اعتماد القلب على الله جل وعلا بحصول المراد، أما تعطيل السبب لا يجوز لا

(١) كثر العمال، صفوة الصفوة.

(٢) البخاري (٣٦١٥) كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ص ٩ (٢٠٠٩) كتاب التوكل والرفق.

باب في حديث الهجره، ويقال له حديث الرجل، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

شريعاً ولا عقلاً. ثم بقي في المدينة بقية عمره وهي عشرة سنوات وقرضت عليه الفرائض وأمر بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكمل الله جل وعلا به دينه وحصار الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فلما أكمل الله جل وعلا له الدين وبلغ الدعوة قبضه الله جل وعلا إليه، وهذا الدين الذي جاء به يجب التمسك به؛ لأن الله جل وعلا لا يقبل من أحد غيره ولو أتى بكل الطاعات من المعروف والصدقات وغيرها، فلا بد أن يتبع الرسول ﷺ ويمثل أمره.

وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ،

الشرح:

والمقصود بقيام الساعة يعني بداية علاماتها الكبرى، فإذا بدأت فلا تفيد الهجرة كما أن التوبة لا تنفع، والأعمال التي يتزود بها الإنسان ويأتي بها ابتداء لا تنفع؛ لأن الناس اضطروا إلى الإيمان وكُشف الأمر لهم، وإذا كُشف الأمر فلا ينفع الإيمان بشيء مُشاهد، وإنما الإيمان الذي ينفع هو الإيمان بالغيب، ولهذا في صحيح مسلم: الثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها إذا لم تكن آمنت: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها^(١). فطلوع الشمس من مغربها أمر واضح، والدابة ذُكر في رواية

(١) مسلم (١٤٨) كتاب الإيمان، باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان: طلوع الشمس من

مغربها، والدجال، وغاية الأرمض. وابن الترمذي (٣٠٧٢) كتاب تفسير القرآن عن رسول

الله ﷺ، باب ومن سورة الأعمام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهي ضعيفة لم تثبت أن الدابة هي ولد ناقة صالح عليه السلام؛ لأن قوم صالح قالوا للبيهم: لا تؤمن لك حتى نخرج لنا من هذا الجبل ناقة تروينا من الحليب، فتحذوه بشيء لا يستطيعه هو، فأخذ موافقهم بأنه لو خرجت الناقة يؤمنون فأعطوه المواثيق؛ لأنهم استبعدوا هذا، فصار للجبل صوت فخرجت منه ناقة عظيمة كبيرة ومعها فصيلها، فصارت ترويه من الحليب ولكن بشرط أن يتركوا لها الماء، فإذا وردت صار الماء لها وهم يشربون من حليبها، وقد حذرهم أن يتعرضوا لها ولكن الشفاء لا يدع أصحابه، فعقروها بضربها في رجلها فسقطت، فصار فصيلها يصيح فأتلف له الجبل فدخل فيه.

وقد ذكرها القحطاني في منظومته، وهي منظمة ليس لها نظير في الأخلاق وفي التوحيد وفي الفقه، يقول فيها:

وذاكر خروج فصيل ناقة صالح بسم السورى بالكفر والإيمان
وهذا كما قلنا ضعيف، والدابة هي ما يدب على الأرض ولا تعلم ما هي، ولكنها مستخرج كما قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَاذِبُونَ وَإِنَّمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ حَرْثٌ لِّسَنَةٍ مِّمَّنْ لَّكُم مِّنْهَا وَمَن يَعْصِ أَمْرًا ظَاهِرًا فَعَسَىٰ أَمْرًا كَثِيرًا مَّا يَدْرِي ۗ﴾ (النمل: ٨٢).

وتكليمهم معناه أنها تفرق بينهم بما تضعه في وجوههم، فكل واحد تختمه في وجهه فإذا كان مؤمناً أبيض وجهه، وإن كان كافراً أسود وجهه، ويصبح الناس يتعارفون: هذا مؤمن، وهذا كافر.

وهنا ينتهي العمل، ولكن المشكل هو أن الدجال إذا خرج لا يفتح إيمان من يؤمن، وهو من أول الآيات، ذلك أنه إذا خرج يتغير الكون، فيصبح اليوم الواحد سنة والثاني شهر والثالث أسبوع، فقتل النبي ﷺ:

كيف نصنع بالصلاة في اليوم الذي كتبتَه والذي كشره والذي كأسبوع؟ قال: «افقدوا لها»^(١) يعني اليوم الذي كتبتَه صلوا فيه صلاة سنة، والشهر صلوا فيه صلاة شهر، والأسبوع صلوا فيه صلاة أسبوع، وجاء في الحديث الذي في الصحيحين في ذكر الطائفة المنصورة: «لا يضرهم من خالفهم ومن عدلهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(٢)، وقيام الساعة هي ساعتهم وهي الريح التي تأتي من قبل اليمن تقبض كل مؤمن ومؤمنة ولا يبق إلا شرار الناس وعليهم تقوم الساعة بالفتح في الصور النسخة الأولى ويموت فيها كل حي من المخلوقات، وفي النسخة الثانية يحيون.



وَالذَّيْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَقْرَبَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ أَيْمَانِهِمْ ثَلَاثًا يَوْمَ تَكْتُمُ﴾ (النساء: ١٩٧).

الشرح:

يعني تقول لهم الملائكة عند قبض أرواحهم: أين مكانكم.



(١) مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، وأبي داود (١٣٢١) كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، من حديث الترمذي بن سميان، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم: (١١٦٦) في «صحيح الجامع».

(٢) البخاري (٣٦٤١) كتاب المناقب، باب (بدون ترجمة)، من حديث معاوية رضي الله عنه، ومسلم (١٩٢١) كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمشي ظاهرين على الحق، من حديث عتبة بن عامر رضي الله عنه، قال الألباني: «صحيح». انظر حديث رقم (١٦١٢) في «صحيح الجامع».

﴿قَالُوا كَمَا تَشْتَقُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧).

الشرح:
يعني في بلد استضعفنا فيه، ولا نستطيع أن نزال شعائر ديننا من صلاة وصوم وأذان، ولو فعل أحد منا ذلك لعُقب أو قتل.

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ الْيَهُودِ مِثْلَهُ﴾ (النساء: ٩٧).

الشرح:
هنا نخاطبهم الملائكة، يعني أن أرض الله ليست هي البقعة التي أنتم فيها بل هي واسعة، ويمكنكم أن تذهبوا إلى أي مكان وتعبسوا ربكم فيه.

﴿فَتَهَيَّؤُوا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧).

الشرح:
أي تهجروا هذا المكان إلى مكان لا تستمعون فيه من أداء شعائر دينكم.

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ٩٧).

الشرح:
فدل على أن تركهم للهجرة أوجب لهم النار، وهذه نزلت في بعض الذين قتلوا في بدر، لأن الكفار لما خرجوا إلى بدر أرغموا بعض المسلمين الذين عندهم بالخروج معهم، وهذه التي يُخاف منها؛ أن يتزل المسلم في بلد الكفار ويأخذ منهم الجنسية فيرضونه ولا بد أن يعمل

الشيء الذي بأمرونه به، فإذا وقع البلد في حرب يكون معهم، فهؤلاء خرجوا مع الكفار مرغمين فقتل بعضهم، فلما علم الصحابة بذلك قالوا قتلنا إخواننا المؤمنين، فنزلت هذه الآية بأنهم من أن هل التاروا لأنهم كانوا مع الكافرين وتركوا الهجرة، فمعنى ذلك أنه إذا كان المسلم مع الكفار بكثير سوادهم ويقوم بأعمالهم ويسكن في بلادهم فحكمه حكمهم، يكون معهم.



﴿إِلَّا السُّعْتَمِيَّةَ مِنِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ لَا يُسْتَبِشُونَ حَبْلَةً وَلَا يَتَشَدَّونَ

سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٩٨).

الشرح:

استشى الذين لا يستطيعون كالرجل الذي لا يعرف الطريق وليس عنده قدرة، وكذلك المرأة والصبي، فإذا كان عنده حيلة يتحمل بها ويتخلص وجب عليه.



﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْلَمَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا غَفُورًا﴾ (النساء: ١٩٩).

الشرح:

هنا ترجي لأنهم عاجزون، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿عَسَى﴾ في كلام الله متحفة واجبة لأنها تفيد الترجي في اللغة، والله جل وعلا يعلم كل شيء، يعلم المستقبل كيف يكون.



﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَآخَرُهُمْ﴾

[المكوت: ٥٦].

الشرح:

يعني ابحثوا عن الأهل التي تعبدون فيها الله وحده ولا أحد يحول بينكم وبين عبادتكم له، وهي أيضاً دليل على وجوب الهجرة إذا كان الإنسان يخالف على دينه ويمنع من ممارسته.



قَالَ الْبَغَوِيُّ رَجِيئَةُ اللَّهِ: نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ وَآخِرُهُمْ وَأَتَانَهُمْ اللَّهُ بِاسْمِ الْإِيمَانِ^(١).

الشرح:

يعني الذين تبعوا أو الذين آمنوا وبقوا مع الكفار، وناداهم باسم

الإيمان قال: ﴿يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المكوت: ٥٦].



(١) انظر: تفسير البغوي عند قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَآخَرُهُمْ﴾ [المكوت: ٥٦]. قال (٦٤٦/٦): أو قيل: نزلت في قوم انفصلوا عن الهجرة بمكة، وقالوا: لننضمي إن هاجرنا من الجوع وغيث المشقة، فنزل الله هذه الآية ولم يطردهم بترك الخروج، لكن المواقف رحمه الله ذكر خلاصاً ما جاء عن السلف، وبين مراده من هذا وهو أنهم مع مصيبتهم بترك الهجرة لم يكفروا بل ناداهم باسم الإيمان. ولهذا جاء في حاشية ابن قاسم (ص ٢١٤): حكاه عن جماعة من التابعين، فلما أن ترك الهجرة بعد ما وجبت عليه ليس بكافر، لكنه عاصي بتركها، فهو مؤمن ناقص الإيمان عاصي من عصاة المؤمنين.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنْ الشُّؤْ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَقْطَعُ الْهَجْرَةَ حَتَّى تَقْطَعَ الشُّؤْبَةَ، وَلَا تَقْطَعِ الشُّؤْبَةَ حَتَّى تَقْطَعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

الشرح:

فالهجرة باقية كما بقي القتال في سبيل الله، وانقطاع التوبة هو عدم قبولها، والتوبة لا تقبل في مواضع:

الموضع الأول: إذا حضر الموت.

الموضع الثاني: ظهور العلامات التي ترغم الناس على الإيمان، وطلوع الشمس من مغربها ليس خاصاً، فهي صحيح مسلم يقول: «ثلاث إذا خرجن لم يقبل من نفس إيمان لم تكن آمنت قبل: الدجال والداية، وطلوع الشمس من مغربها»^(٢)؛ لأنها أمور ترغم الإنسان على وجوب الإيمان؛ لأن الكون يتغير، والدجال إذا خرج بدأ تغير الكون، فيصح مقدار اليوم سنة واليوم الثاني يكون شهراً والثالث يكون أسبوعاً ثم تعود الأيام على ما كانت عليه.

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَيْتِهِ شَرَّاحِ الْإِسْلَامِ، بِثَلْ: الرِّزْقَاةِ، وَالضُّؤْمِ، وَالْحَجِّ، وَالْأَقْلَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(١) «أبو داود»، كتاب الجهاد، باب في الهجرة على التقطع، وأحمد (١/ ١٩٢)، و«الدارمي»، كتاب السير، باب أن الهجرة لا تقطع، و«الهيتمي» في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٠)، وقال: روى أبو داود والنسائي بعض حديث معاذ بن جبل، رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» و«الصغير» من غير حديث ابن السعدي، ورجال أحمد ثقات.

(٢) سبيل لغزبه.

الشرح:

وأمره هو أمر لأمته كلها، فأوحيت إليه بقية الشرائع وأمر بها، ولم يؤمر بالحج على القول الصحيح إلا في السنة التاسعة، ولكنه ﷺ لم يحج في تلك السنة؛ لأنها وافقت النسيء، ولهذا أرسل أبا بكر رضي الله عنه نائباً عنه في الحج، ثم أرسل بعده علياً لينبذ العهد إلى المشركين وليبين أمر رسول الله ﷺ لمنع الحج للمشركين والعراق؛ لأنهم في الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراق، وهذا قد شرعته قريش وفرضته على الناس، ويزعمون أنهم أهل البيت الطاهرون ويقولون لغيرهم: أنتم تأتون بشباب نجسة متفكرة بالخطايا فلا تطوفون بالبيت في ثيابكم، فإذا وجدتم ثياباً جديدة أو معطيكم أحد وإلا تطوفون عراق، فإذا لم يجد الإنسان من يعيره ثوباً طاف عرياناً حتى النساء، ولكن النساء يطقن بالليل، ولهذا جاء عن امرأة قولها:

اليوم يبدوا بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله^(١)

والمقصود بـ"يبدوا" يعني فرجها، فالجهل لا يأتي إلا بكل قبيح ولا خير فيه، فأرسل الرسول ﷺ من يمتنعهم، فقال: «لا يحج بعد هذا العام

(١) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراق حتى أن كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على سفلها سيوراً حتى هذه السيور التي تكون على وجه الحجر من الذهب وهي تقول:

اليوم يبدوا بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فأقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلْتُمْ عَنْهَا فإِنَّكُم مِّنْهَا بِرِجَالِكُمْ لَا تَلْبَسُوا مِنْهَا ثِيَابًا يُقَالُ لِمَنْ لَبَسَ مِنْهَا ثِيَابًا فَهُوَ عَارٍ﴾ (الأعراف: ٣١). فروح المعاني:

مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(١)، فصاروا ينادون في فجاج مكة وفي المشاعر كلها، فلما صارت السنة العاشرة وافقت تلك السنة ما شرعه الله جل وعلا، لأنهم كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر حتى يقاثلوا في المحرم؛ لأن المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة هذه الأشهر الحرم والحرم فيها القتال وكانوا يحترمون ذلك، ولكن ثلاثة أشهر متوالية وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم تُطيل عليهم المدة بلا قتال ففعلوا تلك القعدة، وقالوا: نجعل بدل المحرم صفرأ في هذه السنة وفي السنة التالية تكون كما هي، والسنة التي حجها الرسول ﷺ وافقت إيقاظه كما جعله الله جل وعلا، ولهذا لما قام يخطب قال: إن الزمان استدار كهيته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم^(٢) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، رجب مضر لأن مضر كانت تعظمه أكثر من غيرها فأضيف إليها، فهذا هو السبب في كونه تأخر عن الحج لما فرض في السنة التاسعة، وهو حج مرة واحدة فقط واعتبر أربع مرات.



(١) البخاري (٤٣٩٣) كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع، ومسلم (١٣٤٧) كتاب الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم (٧٦٣٢) في صحيح الجامع.

(٢) البخاري (٤٦٦٦) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنْ يَدْرَأْكَ إِلَى الْكَافِرِينَ مِنْ آلِ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ فَلَا تَكُونُوا فِيهِمْ أَلْفَاظًا مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، ومسلم (١٩٧٤) كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الأحرار، من حديث أبي بكر، رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني رحمه الله: صحيح، من الحديث: حدثنا مسلم، حدثنا إسحاق، حدثنا أيوب عن محمد عن ابن أبي بكر عن أبي بكر.

وَعَدَّ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ

الشرح:

يعني الشرائع التي علمناها وما كُلفنا بها، فمنها ما هو فرض، ومنها ما هو نفل.

• • •

أَخَذَ عَلِيٌّ عَلَاً عَشْرَ بَيْنِينَ،

الشرح:

يعني في المدينة بعد الهجرة.

• • •

وَتَوَفَّى - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَبَيْتَهُ بَابِي. وَهَذَا بَيْتُهُ،

الشرح:

يعني هذا الدين الذي يذكره هو أصوله وإذا تمسك به الإنسان نجا من عذاب الله.

• • •

لَا خَيْرَ إِلَّا قَدْ آمَنَّا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا عَلَّزْنَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي ذَلَّهَا

عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ،

الشرح:

والتوحيد فيه كل خير وسعادة، فالتوحيد يكون في العبادات كلها، في جميع ما تعبد الله جل وعلا به، وسمي توحيداً لأنه يكون واحداً غير موزع كما قال ابن القيم رحمه الله في التوبة:

كن واحداً لواحد في واحد أعني طريق الحق والإيمان

يعني كن عبداً لواحد وهو الله، ولا تكن موزعاً وتكن عبداً للشهوات

والمعاصي، في واحد يعني في سبيل واحد وفي طريق واحد ولا تسلك الطرق الملتوية بل اسلك طريق الحق والإيمان، فالتوحيد يكون في جميع العبادات وإن لم يكن توحيداً فهو شرك، والشرك يبطل العمل ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٢٥). فإذا كان هذا يحاطب به الرسول ﷺ والرسل قبله فكيف بأحد الناس؟

وَجَمِيعٌ نَا يُحْيِيهِ اللَّهُ وَيَرْتَضَاهُ،

الشرح:

يعني الذي يأمر به، والأمر الذي يأمر به يأتي على طريقين: أحدهما: الوجوب والفرص.

الثاني: الاستحباب، حتى يتزود الإنسان من العمل الكثير ويحصل على الدرجات العلى؛ لأن الناس لا يستوون، فبعض الناس لا يريدون أن يفعلوا إلا الواجب فقط ويتركوا المحرم، وأناس لهم رغبة في الخير ففتح أمامهم الباب، ولهذا جاء في حديث عمرو بن عبسة قال لما سئل عن الصلاة: «الصلاة غير موضوع فاستكثر أو استقل»^(١) هذا يدل على أن الإنسان إذا أكثر من الصلاة لا يقال له: إنك مبتدع أو أنك جئت بشيء غير مشروع، فبعض الناس يقول اقتصر على الفرائض وعلى النوافل التي ثبتت وهذا خطأ، لهذا كان أحد الصحابة يخدم الرسول ﷺ فلما كان في

(١) «التفسير ابن كثير» في سورة النساء، والتفسير القرطبي» في سورة البقرة، وعرجه الأجرى والأخبار في فضل الصلاة والسجود كثيرة تشهد لقول الجمهور. والله تعالى أعلم.

أحد الأيام وجده قد هيا له وضوءه وما يحتاج إليه، فقال له: امن فعل
 هذا؟ قال: أنا. قال: فسلني قال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال:
 «أوغير ذلك؟» قال: هو ذلك. قال: «إذن أعني على نفسك بكثرة
 السجود»^(١). فإذا أكثر الإنسان من السجود رفعه الله.

وَالشُّرُّ الَّذِي عَدَدْنَا بِهِ الشُّرْكَ، وَجَمِيعُ مَا يَنْخَرُهُ اللهُ وَيُنْأَهُ

الشرح:

ومعناه أن الرسول ﷺ أمر بكل ما يقرب إلى الله ويبيده ونهى عن كل
 ما يمكن أن ينقطع الإنسان من الوصول إلى الله ويقربه إليه من الأعمال
 والعقائد والأقوال وغيرها، ولهذا يحزم الإنسان أن الرسول ﷺ يبين لعباده
 الله كيف يعتقدون في ربهم لأن هذا هو الأصل الذي يُبنى عليه غيره
 وليس كما يقول أهل الضلال أن الأمر ترك للعقول للنظر فيه.

بَعَثَ اللهُ إِلَى النَّاسِ خِطَابَهُ،

الشرح:

يعني بعث للناس جميعاً عرباً وعجماً جنأ وإنساً وكل من على وجه
 الأرض فهو مبعوث إليهم، وقد أنذرهم وبين أنه مبعوث إليهم، لليهود
 والنصارى والوثنيين وغيرهم.

وَأَفْتَرَسَ طَاعَتَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِيَا

الشرح:

فلا طريق إلى الخلاص من العذاب إلا بطاعته وإتباعه صلوات الله وسلامه عليه وإلا يكون العذاب ملازماً للإنسان إذا لم يتابعه.



وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِحَاثِبِهَا النَّاسُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨).

الشرح:

الناس كلمة عامة ويدخل فيها كل من أطلق عليه أنه من الناس ودخلت الجن في هذا للنصوص الأخرى، فالجن مكلفون مثل الإنسان وهم مجزيون، فالمؤمن يدخل الجنة على القول الصحيح والكافر في النار؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿لَا تُدْخِلَنَّاهُمْ فِيهَا وَبِكَرِهَتِكَ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ﴾ (س: ١٨٥). فالكفرة هم حطب جهنم من الجن والإنس وتمتلئ منهم.



وَتَحْتَمِلُ اللَّهُ بِدِينِهِ؛

الشرح:

يعني كل ما نحتاجه في ديننا بينه ووضحه، ولم يكلنا إلى عقولنا، فالذي لم يبينه الرسول ﷺ ولم يوضحه فهو ليس من الدين، والدليل على هذا قوله جل وعلا: ﴿بِحَاثِبِهَا الرَّسُولُ عَلَىٰ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّا تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ وَصَايَاتِي﴾ (الاحزاب: ٦٧). يعني أن الذي ما بلغه الرسول ﷺ فليس من الدين بل هو من البدع.



وَالذِّبْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الشرح:

وهذه الآية نزلت في حجة الوداع وهو في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، قال يهودي لعمر رضي الله عنه: إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً، فقال: وأي آية؟ فذكر هذه الآية، فقال: لقد نزلت في يوم عيد، في عرفات يوم الجمعة، يعني في عيدين ليس عيداً واحداً، الجمعة عيد وعرفة عيد، فنحن نتخذها عيداً^(١).



وَالذِّبْلُ عَلَى مَوْبِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَبْعُوثٌ فِيكُمْ بِرَأْسِكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُكُمُ تَحْمِيصُورِكُمْ﴾ [الزمر: ٢٠-٢١].

الشرح:

يعني أنه يلزم اعتقاد ذلك؛ لأنه واقع وقد أخبر الله به كما في هذه الآية وغيرها.



وَالنَّاسُ إِذَا تَأَلَّوْا يُبْعَثُونَ

الشرح:

البعث في اللغة: إثارة الشيء، يقال: بعثت البحر إذا كان باركاً وأثرت، وبعثت الصيد من مكانه إذا أثاره، وبعثت فلاناً إلى فلان إذا أرسلته إليه،

(١) «البحاري» (١: ١٤٨) كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان والقضاء، مسلم (١٧: ٢٣٠) كتاب القدر.

ولكن المقصود بالبحث هنا إخراج الناس من قبورهم أحياء، والله جل وعلا يخرجهم من قبورهم في آن واحد جميعاً، وكثير من الكفار كانوا ينكرون هذا، لأنهم لا عهد لهم به، وبين الله جل وعلا هنا في أدلة كثيرة منها النشأة وكيف يولد الإنسان ومنها النبات، جاء رجل من الأعراب فقال: يا رسول الله كيف يبعث الله الموتى؟ قال: «هل مررت بأرض من أرض قومك مجدبة؟» ليس فيها نبات. قال: نعم. قال: «ومررت بها وهي مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك يحيي الله الموتى»^(١). يعني أرض ميتة تزل عليها الماء فأنبتت النبات بأمر الله جل وعلا ولذلك قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَخْرِجُهُمْ﴾ (الروم: ١٩). وقال الله جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَصْكَبٌ مِّمَّنْ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ (المر: ٥٧). فالقادر على الخلق العظيم الكبير قدرته على الشيء الصغير من باب أولى.



وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَاكُمْ فِيهَا تِلْكَ أَعْيُنُكُمْ﴾ (المد: ٥٥).

الشرح:

يعني من الأرض، وكل الناس أصلهم من التراب، ولكن جعلهم الله جل وعلا شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَاكُمْ فِيهَا تِلْكَ أَعْيُنُكُمْ﴾ (الجمرات: ١٣). فمن كان تقياً فهو الكريم عند الله، من أي صنف كان، والمقصود أن الإنسان بعد الموت يصير تراباً ثم يحيه الله ويخرجه من الأرض كما كان في الدنيا.



(١) رواد أحمد (٣-١٥٦) مسند المنين، من حديث أبي رزين العنطي رضي الله عنه.

﴿وَمِنْهَا تُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (عد: ١٥٠). الاستخراجه من الدنيا إلى الآخرة

الشرح:

يعني خلقاً جديداً غير الخلق الأول. بما فيه لا يبدأ الله تبارك وتعالى

• • •

﴿قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذَرْتُكَ مِنَ الْأَرْضِ تَارَةً ۝١٧﴾ ثُمَّ يُبَدِّلُ فِيهَا وَخَرَجْتُمْ

إِثْرَكُمْ﴾ (نوح: ١٧، ١٨).

الشرح:

يعني أباناً آدم، أخرجه من الأرض، ثم يميتكم بعدما كنتم أحياء

وتعودون إلى أصلكم التراب ثم يخرجكم أحياء مرة أخرى ويجازيكم

بالأعمال، ثم بعد هذا الإخراج يقفون أحياء دائماً ما دامت السموات

والأرض إما في النار وإما في الجنة، وليس هناك منزلة ثالثة. الجنة والنار

• • •

﴿وَتَعَدُّ الْبَغْيَ مُحَاسِبُونَ وَتَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ﴾

الشرح:

فهم محاسبون من الله جل وعلا، وإنه سيدكر لهم أعمالهم

وسيجازيهم عليها، وله عليهم كتاب لا يترك شيئاً إلا وقد أحصى، لأن

الإنسان معه أربعة من الملائكة اثنان في الليل واثنان في النهار يكتبان

عمله ولا يتركون شيئاً إلا كتبوه، ولهذا يقول المجرمون إذا أخرج لهم

الكتاب: ﴿يَا لَيْلًا هَذَا أَلْحَسِبُ لَا يَغَادِرُ سَيْرَةً وَلَا كَيْبَرَةً إِلَّا لِحَصْحَا﴾

الكهف: ١٤. وقوله: ﴿وَكَسَلُوكَ لِآيَاتِنَا وَلَكِنَّكَ كَلِمَةٌ شَسِيبَةٌ تَخْرُجُ كَقَوْلِ الْغِيَاةِ

صِحَابًا لِقَدْحَةٍ مَسْخُورًا ﴿٣٠﴾ أَقْرَأَ كَيْتَابَكَ كَفَىٰ بِتَقْوِيكَ الْيَوْمَ عَلِيمًا حَسِيبًا ﴿٣١﴾ (الاسراء: ١٧، ١٨). فلا يستطيع أن ينكر شيئاً، فإن أنكر شهدت عليه أعضاؤه من سمع وبصر وكذلك تشهد عليه الأرض.

وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ لَعَالِي: ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَجْعَلُنَا لِئَنَّا كُنَّا إِنَّمَا تَحِيْرًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ أَبَدًا﴾ (النجم: ٣١).

الشرح:

فجعل الناس قسمين: الأول: المسيء، ويجزى بالنار.

الثاني: المحسن، ويجزى بالجنة، والجنة شيء عظيم جداً لو علمه الإنسان لا يمكن أن ينام في طلبها ولا يمكن أن يستقر، ولكنها صارت غيباً والناس يتفاوتون فيه، فهناك أمل وحب للدنيا يقطع دون هذه الأمور، وإلا فالجنة فيها من النعيم والبهجة والسرور ومن الحياة التي لا يتطرق إليها لا مرض ولا فناء ولا انقطاع ولا سامة ولا حزن ولا تسمع فيها لغواً ولا كذباً ولا غير ذلك بل فيها النعيم المقيم والمسكن الطيب، والإنسان لو اطّلع على شيء من ذلك لصار له حالة أخرى، ذكر ابن أبي الدنيا في بعض كتبه يقول: إن قافلة خرجت من بغداد إلى الحج، فكان في صحبتهم شاب فكان لا يفتر عن الذكر وعن الصلاة وعن الصوم، فتمعّبوا منه وقالوا: ما شأنك أنت؟ قال: أنا رأيت شيئاً جعلني لا أترك شيئاً من العمل ولعلي أصل إليه، فقالوا: ماذا رأيت؟ قال: رأيت في المنام أني في قصر ميني من ذهب وفضة وبين شرفاته امرأة لم أرى مثلها ولا

أظني أرى مثلها، فقالت لي: إياك أن تقطع دوننا. ﴿١٦﴾

ونحن نقراً قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَانَ مَقَامُ رَبِّكَ جَنَّاتٍ ﴿١٧﴾ بَابُ مَا كَانَ

رَبِّكَ لَكُذِّبًا ﴿١٨﴾ نَوَافِلُ ﴿١٩﴾ بَابُ مَا كَانَ رَبِّكَ لَكُذِّبًا ﴿٢٠﴾ بَيْتَانِ جَنَّاتٍ مَعْرُوفَاتٍ ﴿٢١﴾

بَابُ مَا كَانَ رَبِّكَ لَكُذِّبًا ﴿٢٢﴾ بَيْتَانِ مَعْرُوفَاتٍ ﴿٢٣﴾ بَابُ مَا كَانَ رَبِّكَ لَكُذِّبًا

﴿٢٤﴾ مَكْرُوبَةٍ عَلَى مَرْغَبٍ مَكْرُوبَةٍ مِّنْ إِسْتَقْرَابٍ مِّنْ الْمُكْرَبِينَ مَعَى ﴿٢٥﴾ بَابُ مَا كَانَ رَبِّكَ

لَكُذِّبًا ﴿٢٦﴾ بَيْتٌ مُّصَوِّرَاتٍ أَكْثَرٌ لَّذِكِّ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَلَا جَانٍ ﴿٢٧﴾ بَابُ مَا كَانَ

رَبِّكَ لَكُذِّبًا ﴿٢٨﴾ كَاتِبِينَ الْآيَاتِ وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ ﴿٢٩﴾ بَابُ مَا كَانَ رَبِّكَ لَكُذِّبًا ﴿٣٠﴾

الرحمن: ١٦-١٧، ولا تتأثر بهذا، وتأثر برؤيا في المنام وتحصلنا على شدة

العمل والاجتهاد فيه ومثل كلام رب العالمين جل وعلا لا يؤثر، والسبب

أن إيماننا فيه دخن وضعف وليس كإيمان الصحابة الذين يقولون: لو

كُشِفَ لَنَا الْأَمْرُ مَا زِدْنَا عِيمًا نَحْنُ فِيهِ. ﴿٣١﴾

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَيْتِ كَفَرًا ﴿٣٢﴾

الشرح: يعني أن الإيمان بالبيت لا بد منه، والكذب به والشك فيه كفر

يجعل الإنسان من أهل النار، نسأل الله العافية.

﴿٣٣﴾

﴿رَبِّمَ الْيَوْمِ كَفَرُوا لَنْ يُؤْمِنُوا﴾ (الحديد: ١٧)

الشرح: كلمة ﴿رَبِّمَ﴾ الغالب أنها تأتي للكذب، الذي لا يمسى لا على دليل

ولا على خير صحيح بل هو ظنون كاذبة.

قوله: ﴿لَنْ يَنْفَعُوا﴾ هذا نفي للمستقبل.

﴿قُلْ عَلَىٰ رَبِّي كَيْفُ الْقِسْمِ﴾ (المعارج: ١٧).

الشرح:

أمر الله جل وعلا نبيه أن يقسم على ثبوت البعث، وقد جاء الأمر بالقسم في ثلاثة مواضع في القرآن وهذا أحدها، والثانية في سورة سبأ، والثالثة في سورة يونس.

﴿ثُمَّ لَنْفَعَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (المعارج: ١٧).

الشرح:

يعني تُخبرون به ويُنفص عليكم.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَنَذِيرِينَ؛

الشرح:

فهم يبشرون بالخير والسعادة من أطاعهم واتبعهم، وينذرون من خالفهم وعصاهم بجهنم وبالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكل من كذب الرسل يؤخذ في الدنيا ويعذب في الآخرة إذا كانوا أممًا، أما إذا كانوا أفراداً فهم لا يعجزون الله، فقد يؤخذ وقد يُمهَّل، فالله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا يَحْزَنُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَالَّذِينَ نَحْنُ لَكُمْ خَيْرٌ لَّأَعْيُنُهُمْ إِنَّمَا كُنَّا لَكُمْ لِيَرَوُا كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٧٨). فتركهم في حياتهم وإطالة عمرهم شر لهم.

وَالذِّبْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى

اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الشرح:

يعني لئلا يحتج الناس على الله ويقولون: ما جاءنا أمرك ولا أوامرك لنا رسولاً، ولو جاءنا أمرك لأطعناك واتبعتك، فقطعت هذه الحججة، فليس للناس على الله حجة، فمعنى هذا أن الإنسان إذا سمع أن له رسولاً وجب عليه أن يتبعه، واتباعه يكون بالبحث عن أقواله وأفعاله وأوامره التي يأمر بها ونواهيها التي ينهى عنها، فإن لم يفعل هذا فمعناه أنه مُعرض، والإعراض عن الدين وعدم الاهتمام به أحد نواقض الإسلام.



وَأَوْلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآبَرَأَهُمْ مَخْتَلَفًا ۖ وَهُوَ خَائِمٌ النَّبِيِّينَ؛

وَالذِّبْلُ عَلَى أَنْ أَوْلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ

وَأَلْيَسْنَا بِكَ تَبْوِيحًا﴾ [النساء: ١٦٣].

الشرح:

فجعل النبيين بعد نوح عليه السلام، فنص على أنه قبل النبيين، وكان الناس قبل نوح على التوحيد مخلصين ولم يكن عندهم شرك كما قال ابن عباس: كان قبل نوح عشرة قرون من بني آدم كلهم على التوحيد ثم طرأ فيهم الشرك بسبب حدث عندهم، وهو أنه كان عندهم رجال صالحون يتنقلون بهم ويقومون بينهم في الأمر الذي فيه الصلاح والخير، ثم ماتوا في زمن متقارب حتى انتهوا، فأسف عليهم قومهم أسفاً شديداً، لأنهم فقدوا إرشاداتهم وتعليماتهم وحشهم على الخير وهم أهل الخير،

فجاءهم الشيطان في صورة ناصح وقال لهم صوروا صورهم وانصبوها في المجالس التي كانوا يجلسون، فإذا رأيتم صورهم تذكركم أفعالهم واجتهادهم باجتهادهم، فاستحسنوا هذا وعلووه، فصاروا على هذه الطريقة زمناً ثم ماتوا ونسي السبب الذي من أجله صورت هذه الصور، فجاء قوم بعدهم فجاءهم الشيطان وقال لهم هذه الصور التي صورها أجدادكم ما صورهم إلا لأنهم يترسلون بها ويتشفعون بها، ومن هنا بدأ الشرك، وقد ذكرت في قوم نوح عليه السلام، وهي: ود وسواخ ويغوث ويعوق ونسراء فهذه أسماؤهم التي صارت معبودات، وصار بعضهم يوصي بعض بالتمسك بها، وصار هناك أيضاً أصنام غيرها.

المقصود أن نوح عليه السلام هو أول الرسل، والرسل هم الذين يرسلون إلى الكفار، يوحى إليهم بشرائع وأوامر ويرسلون إلى قوم كافرين، أما النبي فيوحى إليه وهو في أمة مسلمة.



وَمَنْ أُمَّةٌ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْتُرُهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ اللَّهِ وَحُدُودٍ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَبِهُوا الْفَالِقُونَ﴾ [الشع: ١٣٦].

الشرح:

الأمة: هي الجماعة من الناس، والأمة جاءت في القرآن بعدة معاني وهذا أحدها.

والمعنى الثاني: الطائفة من الزمن كقوله: ﴿وَأَذَكَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يوسف:

١٤٥. ﴿وَلَيْتَ أَخْرَجْتَهُمُ الْقَتْلَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُعْتَدُونَ﴾ [مرد: ٥٨].

والمعنى الثالث: الرجل القدوة كقوله: ﴿إِنَّ بُرْهَانَكَ كَأَنَّكَ قَائِمٌ بِتَوْحِيدِنَا وَتَرْبُّؤِنَا مِنَ الشُّرْكِ﴾ (المع: ١١٠).

والمعنى الرابع: الملة والدين كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا نَارَنَا عَلَى أُنُوفٍ﴾ (العرف: ١٢٢).

وَأَقْرَضَ اللَّهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْوَبَاءِ الْكُفْرَ بِالطَّاعُوتِ وَالْإِيمَانَ بِأَهْلِ

الشرح:

لقوله جل وعلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَتَّبِعْ

وَأَقْرَضَ اللَّهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْوَبَاءِ الْكُفْرَ بِالطَّاعُوتِ وَالْإِيمَانَ بِأَهْلِ

وَأَقْرَضَ اللَّهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْوَبَاءِ الْكُفْرَ بِالطَّاعُوتِ وَالْإِيمَانَ بِأَهْلِ

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ وَرَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: تَعْنَى الطَّاعُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ

الشرح:

والضمير في قوله: «حده» يعود على العبد، وحده العبد أن يكون عبداً، ولا يجوز أن يخرج عن هذا الحد فلا يكون رياً وأمر كما بأمر الله جل وعلا، ثم جعل التجاوز يكون في ثلاثة أمور: في العبادة وفي الاتباع وفي الطاعة، فمن عبث من كل مخلوق فهو طاعوت سواء كان عاقلاً أو غير عاقل، ولكن هذا يحتاج إلى قيد بأن يقال: من عبث وهو الراسي فهو

طاغوت، والقيود هو الرضا، أو يكون متبوعاً بأنواع يتبعونه على الكفر والضلال، فهو طاغوت يعني هو الرئيس في معاصي الله جل وعلا، أو مطاع في المعاصي.



وَالطَّوَائِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عِبَدَ وَهُوَ رَاضٍ،

الشرح:

والطوائيت قد ملأت الأرض، وهذه الرؤوس الخمسة هي أجناس وليست خمسة أفراد فقط، بل كل جنس له أعداد كبيرة، وإبليس ليس فرداً فقط، وهناك إبليس من بني آدم كثيرون ومن الجن ومن غيرهم.



وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ،

الشرح:

وقد يدعو الإنسان إلى عبادة نفسه سواء بالصراحة أو بغير ذلك، وقد لا يرضى إلا أن يكون مطاعاً معبوداً. وهذا أعظم من الذي قبله.



وَمَنْ ادَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ،

الشرح:

لأن الله استأثر بعلم الغيب ولم يطلععه إلا من ارتضى من رسول فإنه يجعل له دلائل على نبوته بإخباره بأمر مغيبة ليكون ذلك دليلاً على أنه

رسوله، لهذا استثنى الله ذلك.

• • •

وَمَنْ حَكَمَ بِحُكْمِ اللَّهِ فَرَّغْنَا لَهُ مِنْهُ جُلُودًا مَعْرُوفًا ﴿١٧﴾

الشرح

يعني نبد حكم الله واتخذ القوتين يحكم بهما، فيكون من رؤوس الطواغيت يعني أنه يدعو الناس للحكم بالطواغوت أو بأمرهم به ويلزمهم بذلك.

• • •

وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ لَعَنَ اللَّهُ الْكُفْرَ وَالْكَافِرِينَ وَالشَّكُورَ وَالْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آتَوْا اللَّهَ رِيقًا ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَاقْتِرَابَتِهِمْ أَعْيُنٌ مُغْمِغَةٌ لِيُذَكَّرَ لِنَفْسِهِ إِنَّ الَّذِينَ أَنَابُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ هُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالْحُكْمِ وَالَّذِينَ يَحُمِلُونَ إِثْمَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ بِهِمْ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ جَدِيدَ إِيمَانِهِمْ إِذْ حَضَرُوا اللَّهَ أُولَئِكَ لَئِيمٌ كَذِبٌ ﴿٢١﴾

الشرح:

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ يَنْبَغُوا اللَّهُ وَنَتَّعَيْنَا آلَ الْكَافِرِينَ﴾ (النحل: ٣٦). واجتنابه عدم الاقتراب حوله، فالاجتناب أبلغ من قول: أترك، اجتناب، يعني كن بعيداً عنه، ويقول الإمام مالك: الطواغوت هو كل ما عبد من دون الله، وهذا كلام عام، ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطواغوت الكافر والجبّ الشيطان وقال السحر، فالسلف يفسرون الشيء ببعض أفراد، وليس بالكل وذلك حسب حاجة السامع، وابن القيم جاء بكلام هام، والعروة الوثقى

• • •

هي لا إله إلا الله يعني هي التوحيد.

وَعَلَّمَا مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي الْحَبِيثِ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ،
وَعَشْرَةُ الصَّلَاةِ»

الشرح:

يعني العمود الذي يقوم عليه الدين، أما الأساس الذي يُبنى عليه فهو
التوحيد.

وَفِرْقَانًا سَبَّابِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(١).

الجهاد هو أرفع ما أمر به وأعلى، وقد أعدَّ الله للمجاهد في سبيله ما
لم يعد لغيره، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «لو دعت أني أقتل في سبيل الله ثم
أحياء، ثم أقتل ثم أحياء، ثم أقتل»^(٢) ولما قُتل عبدالله بن حرام بأحد وكان
مقبلاً فلم يُعرف من كثرة الطعنات التي في بدنه، قال النبي ﷺ لأبيه جابر:
«أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما
كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً فقال:
يا عبدي تمنّ علي أعطتك، قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية، قال الرب

(١) مسند الترمذي (٢٦١٦) كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وفيه ما جاء

(٢٦١٧) كتاب القدر، باب كيف اللسان في الفتنة، ورواه أحمد والنسائي كلها من رواية أبي

وائل عن معاذ، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، ورواه الطبراني مختصراً.

(٢) البخاري (٣٥) كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، مسلم (٣٢٤٨٧) كتاب الإمامة، باب

فصل الجهاد والظهور في سبيل الله، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون^(١)

الشرح:

هذا حديث معاذ رضي الله عنه الذي قال فيه للرسول ﷺ: أخبرني

عن عمل يدخلني الجنة ويعدني من النار؟

قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليس على من يسره الله عليه: تعبد

الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان،

وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب

الخير؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «الصوم جنة، والصدقة تطفئ

الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل» ثم تلا

قوله جل وعلا: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ تَحْتَهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَمَا رَافَعَتُهُمْ شِفْعُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر

وعמודه وذروة ستامه؟» قلت: بلى، قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده

الصلاة وذروة ستامه الجهاد في سبيل الله».



وَاللَّهُ أَكْبَرُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



(١) القرطبي (٢٩٣٦) كتاب التفسير عن رسول الله، باب ومن سورة آل عمران، ابن ماجه (٢٧٩٠)

كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٩	أقوال العلماء في البسطة
١٣	أقسام الوجوب
١٤	طلب العلم فريضة
١٧	العلم للعمل
١٧	الدعوة للعلم
١٩	مراتب الجهاد
٢٠	يكون الجهاد فرض عين في ثلاث مواطن
٢٣	الصبر وأقسامه
٢٧	العلم قبل القول والعمل
٣١	إنبات الربوبية والألوهية لله
٣٤	إرسال الرسل
٣٦	التفكر في خلق الله
٣٩	هل يمكن أن يخلق المخلوق نفسه
٤٠	وجوب طاعة النبي ﷺ
٤١	أقسام أهل السعادة
٤٣	الساعة قسمان
٤٨	أنواع الشرك

٥٠	أقسام الدعاء
٥٢	مفهوم الموالاتة والمعاداة
٥٧	ذكر الجنة
٦٢	لا يكون العمل مقبولاً إلا بالإخلاص والمتابعة
٦٣	المراد من خلق المخلوقات
٦٥	أعظم ما أمر الله به
٦٧	أعظم ما نهى الله عنه
٧٣	الأصل الأول: معرفة الرب
٧٧	ذكر إحياء الموتى في القرآن في خمسة مواضع
٧٩	دلائل وآيات على عظمة الخالق جل وعلا
٩١	ذكر مسألة الاستواء على العرش
٩٣	أن العبودية لله جل وعلا
٩٧	أنواع العبادة
١٠٥	ذكر بعض الأعمال الباطنة
١٠٦	قصة إبراهيم وهود عليهما السلام
١١٠	سيد الاستغفار
١١١	احفظ الله يحفظك
١١٥	ذكر بعض الأعمال الظاهرة
١١٩	الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة
١٢٢	وجوب البراءة من الشرك وأهله
١٢٥	مراتب الدين

- ١٢٦ المرتبة الأولى: الإسلام
- ١٢٧ شروط لا إله إلا الله
- ١٢٨ معنى: لا إله
- ١٢٩ بيان الخطأ في إعراب لا إله إلا الله
- ١٣٠ معنى: إلا الله
- ١٤١ بيان الأدلة التي تفسر «لا إله إلا الله»
- ١٤٢ بيان الأدلة التي تفسر «أن محمداً رسول الله»
- ١٤٣ معنى: شهادة أن محمداً رسول الله وأنها مرتبطة بشهادة لا إله إلا الله
- ١٤٤ أقسام الناس في رسول الله ﷺ
- ١٤٥ دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد
- ١٤٦ دليل الصيام والحج
- ١٤٧ المرتبة الثانية: الإيمان
- ١٤٨ الحياء
- ١٤٩ أركان الإيمان
- ١٥٠ الإيمان يزيد وينقص
- ١٥١ الإيمان بالملائكة ووظائفهم
- ١٥٥ الإيمان يكتب الله العترة
- ١٥٧ الإيمان يرسل الله
- ١٥٧ الإيمان باليوم الآخر
- ١٥٨ الإيمان بالقدر خيره وشره
- ١٥٨ درجات الإيمان بالقدر

- ١٥٩ المرتبة الثالثة: الإحسان
- ١٦٠ حديث جبريل المشهور
- ١٦٤ أقوال العلماء في النسخ في الصور
- ١٦٥ علامات الساعة
- ١٦٧ أقسام علامات الساعة
- ١٦٩ الأصل الثالث: معرفة النبي محمد ﷺ
- ١٧٠ أقسام العرب من حيث النسب
- ١٧٩ الفرق بين الرسول والنبي
- ١٨٢ قصة إسلام الصحابي الجليل عمرو بن عبسة رضي الله عنه
- ١٨٦ معراج النبي ﷺ
- ١٨٩ هجرة النبي ﷺ من مكة
- ١٩٣ أنواع الهجرة
- ١٩٥ قيام الساعة
- ٢٠٢ المواضع التي لا تقبل فيها التوبة
- ٢٠٥ الأوامر التي من الله على طرفين
- ٢١١ أقسام الناس حسب أعمالهم
- ٢١٢ القسم بثبوت البعث في ثلاثة مواضع من القرآن
- ٢١٤ الناس كانوا على التوحيد قبل أن يرسل نوح عليه السلام
- ٢١٥ معنى: الأمة
- ٢١٦ رؤوس الطوائف
- ٢٢١ الفهرس

